دروس الجمعة

فضيلة الأستاذ الدكتور
أحمـــــد عبـــده عـــوض
الداعيـة والمفكر الإسلامي

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: ١].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،،،

فمن نعمة الله على هذه الأمة أن أرسل فيها النبي العربي صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه الكتاب الكريم الهادي إلى صراط الله المستقيم، وأكمل الله عز وجل لهذه الأمة دينها ولم يقبض نبيه إليه إلا بعد ما بلغ البلاغ المبين التام، وترك رجالًا فقهوا الكتاب والسنة وتمسكوا بهما، وكانوا جميعًا على عقيدة صحيحة واضحة ربطت بينهم وجمعتهم على كلمة واحدة، وقد خلف هذا الجيل جيل التابعين الذين كانوا خير خلف لأعظم سلف ورثوا الكتاب والسنة وساروا على هدى النبوة، فتمسك بها أهل القرون الأولى من هذه الأمة تمسك الغريق بحبل النجاة وقارب السلامة، وقد أدركوا أن ذلك المصدر هو حبل الله المتين وطريقه القويم الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، فكانوا منه ينهلون وعليه يعولون وإليه يفزعون كلما حزبهم أمر أو اختلطت عليهم واقعة، فيجدون فيه فصل أمرهم وحكم ما بينهم.

وجعل الله علماء الأمة مصابيح لها بعد النبي وصحابته، يعملون على تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم، ويرشدونهم إلى الصحيح من دين الله، فالحمد لله واهب العطايا، رازق البرايا، واهب السجايا، غافر الزلات، رافع الدرجات، أمره بين الكاف والنون، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

والصلاة والسلام الأتمان على مَن علم الناس الأدب مع الله، والحب في الله، والرضا بالله، والقناعة بما أعطى الله، النبي المنقذ من الضلالة، المستقل بأعباء الرسالة، المبعوث من أكرم الأعراق وأحسنها، المنعوت بمكارم الأخلاق وأحسنها، وعلى آله الأخبار المنتخبين، وعلى أصحابه الأخيار المنتجين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى النبيين وآلهم أجمعين، وعلى كل عبد صالح إلى يوم الدين.

ثم أما بعد،،،

فقد فضل الله بعض مخلوقاته على بعض، وله في ذلك الحجة البالغة التي ربما نعرفها أو لا نعرفها، فقد فضل بعض الليالي على بعض؛ فجعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر، من حُرمها فقد حرم الخير كله.

وفضل بعض الشهور على بعض، ففضل رمضان على سائر الشهور، والحمد لله على ذلك، حيث أرشد المسلمين في كتابه وسنة رسوله إلى ذلك الفضل.

وفضل بعض الزرع والفواكه على بعض، فقال تعالى: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ) [الرعد: ٤].

وفضل بعض الناس على بعض، فقال تعالى: (وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ) [النحل: ٧١].

حتى الأنبياء أنفسهم -وهم سادة البشر- فضل الله بعضهم على بعض، فقال تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) [البقرة: ٢٥٣].

وفضل الله بعض البلاد على بعض؛ ففضل مكة المكرمة على سائر البلاد؛ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبًا مكة: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرِجت منك ما خرجت" [أخرجه الترمذي، رقم: ٣٩٢٥].

وقد فضل الله بعض الأيام على بعض؛ ففضل يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع، فإن له في الإسلام له مكانة رفيعة ومنزلة عالية، وقد وردت أحاديث صحيحة تدل على تميزه واختصاصه بخصائص عديدة. فقد ورد في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد" [أخرجه مسلم، رقم: ٨٥٥].

وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق" [أخرجه مسلم، رقم: ٨٥٦].

والخطبة في الاصطلاح: الكلام الذي يُلقى على المنابر يوم الجمعة، بقصد حمل الناس على الخير، وترغيبهم فيه، وصرفهم عن الشر ودواعيه، وتبصيرهم بأحوالهم وواقع أمرهم حسب ما يقتضيه أمر الشرع.

والخطبة من جانب الخطيب هي: مقدرة على التصرف في فنون الكلم، مرماها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه.

ومن أهم أغراضها: الدعوة إلى الصلاح والإصلاح، والاستمساك بأمور الشريعة، وإقامة الحق العدل، ونشر الفضائل، وتسكين الفتن، وفض المشكلات، وتهدئة النفوس الثائرة، وإثارة النفوس الفاترة، ترفع الحق، وتخفض الباطل، هي صوت المظلومين، وواعظ الظالمين، ولسان الهداية.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "زاد المعاد" خصائص يوم الجمعة وأوصلها إلى ثلاث وثلاثين خصيصة، فقال رحمه الله: فصل في خواص يوم الجمعة، وهي ثلاث وثلاثون. فصل: وكان من هديه صلى الله عليه وسلم تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره. وذكر ابن القيم من هذه الخصائص: أن فيه الخطبة التي يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وتذكر العباد بأيامه وتحذيرهم من بأسه ونقمته ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جنانه ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره فهذا مقصود الخطبة والاجتماع له [زاد المعاد، (١/ ٣٦٣)].

ومن خصائص يوم الجمعة وفضائله:

١- أنه أفضل أيام الأسبوع، وقد ورد هذا في كثير من الآثار التي تدل على ذلك.

٢- فيه ساعة الإجابة، قال صلى الله عليه وسلم: "فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يُصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه" [أخرجه البخاري، رقم: ٩٣٥].

٣- الأعمال الصالحة فيه لها فضل أكبر من غيرها من الأيام.

٤- أنه يوم تقوم فيه الساعة، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة" [أخرجه مسلم، رقم: ٨٥٤].

٥- أنه يوم تُكفر فيه السيئات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طُهر، ويَدّهِنُ من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" [أخرجه البخاري، رقم: ٨٨٣].

٦- أن للماشي إلى الجمعة أجر عظيم، قال صلى الله عليه وسلم: "مَن غسَّل يوم الجمعة واغتسل ثم بكّر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها" [أخرجه أبو داود، رقم: ٣٤٥].

٧- أن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما وزيادة ثلاثة أيام، قال صلى الله عليه وسلم: "مَن اغتسل ثم أتى الجمعة، فصلى ما قدِّر له، ثم أنصت حتى يفرغ من خطبته، ثم يصلي معه، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام" [أخرجه مسلم، رقم: ٨٥٧].

٨- أن الوفاة يوم الجمعة أو ليلتها من علامات حسن الخاتمة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "مَن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وُقِيَ فتنة القبر" [أخرجه أحمد، رقم: ٦٦٤٦].

وكان من عادتي أنني بعد خطبة الجمعة أجالس أحبابي المسلمين وأدارسهم العلم والقرآن، في "دروس الجمعة"، وذلك بعد انتهاء خطبة الجمعة حتى صلاة العصر، وأسمع منهم ويسمعون مني، وأشاركهم آلامهم وأمالهم، وأفراحهم وأتراحهم، وألقي عليهم بعض الدروس بما فتح الله عليَّ من العلم -وله وحده المنة والفضل-، وقد رأيت إتماما للفائدة أن أجمع هذه الدروس في كتاب واحد ليكون مرجعًا لكل مسلم يريد أن يستزيد من هذه الدروس. سائلًا المولى القدير الإخلاص والقبول.

اللهم إني عبدك وابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماض فِيَّ حكمك، عدل فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو علمته أحدًا من خلقك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، فسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الأدب والتواضع مع الله عز وجل، اللهم إنك خلقتني ورزقتني وأحييتني فتوفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

اللهم هذه نفسي بين يديك، فإن أحييتها فاجعلها من الصالحين، وإن أمسكتها فاجعلها في عبادك الصالحين.

اللهم إني أسألك أن تعفو عنا يا الله، اللهم إنا واقفون بين يديك، وأنت ناظر إلينا وأنت مطلع علينا، يا مَن يعلم حالنا، ويرى مكاننا، ولا يخفى عليك شيء من أمرنا، نسألك يا الله، اللهم اقبل توبتنا، اللهم اغسل حوبتنا، اللهم وسع أرزاقنا، اللهم استعملنا في طاعتك، اللهم اغسل أوزارنا.

اللهم زكنا ونقنا وطهرنا وارفعنا وعافنا واعفُ عنا، لا تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين، شفع المحسنين منا في المسيئين، يا الله يا فرد يا صمد يا عزيز يا رحيم أنت غياثنا، وأنت ملاذنا، وأنت قصدنا، وأنت ناظر إلينا، وملائكتك معنا وأنت الآن تباهي بنا ملائكتك، وتباهي بنا حملة عرشك، وسكان سماواتك، فانظر إلينا وباهِ بنا ملائكتك، وقل لهم: يا ملائكتي إن عبادي إن أحبابي جالسون في ذكري ومحبتي، أشهدكم يا ملائكتي إني قد غفرت لهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، سفري بعيد وزادي لا يبلغني وحجتي لم تزل والموت يطلبني، ما أحلم الله عني حيث تمهلني وقد تماديت في ذنبي ويسترني.

اللهم إنك سترت علينا في الدنيا كثيرًا فاستر علينا يوم القيامة، ولا تخزنا يوم لا يخزي الله النبي، ولا تخزي النبي فينا.

اللهم اجعل هذه الساعة ساعة رضا، وساعة إجابة، وساعة قبول، يا قاضي الحاجات اقضِ حاجاتنا، ما لنا سواك يا الله، أنت جاهنا إذا أغلقت الأبواب، أنت جاهنا إذا انقطعت الأسباب، أنت أنيسنا وكفيلنا وحسبنا وخالقنا ورازقنا. وقد مددنا أيدينا بالذل معترفين إليك يا خير مَن مددت إليه يد، فلا تردنها يا رب خائبة، فبحر جودك يَرْوِي كلَّ مَن يَرِدُ.

اللهم لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، اللهم لا تعذب هذه القلوب الشاكرة، اللهم لا تعذب هذه الأقدام الساعية إليك، اللهم لا تعذب هذه الأعين الباكية، اللهم لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يوم القيامة ناعمة ناظرة إليك راضية.

أسألك برد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، يا رب لا تخرجنا من الدنيا إلا وقد جبرت خواطرنا في الدنيا والآخرة، ولا تخرجنا من هذا الدنيا إلا وقد غسلتنا وطهرتنا ونقيتنا يا رب.

اللهم ثبتنا في الدنيا، وثبتنا بعد الموت وقبل الممات، خفف علينا الحساب، وهوِّنْ علينا الصعاب، يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام، أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك.

شفع المحسنين منا في المسيئين، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اللهم بارك في بلاد المسلمين وبارك في أهلها وفي شبابها وفي رجالها وفي نساءها وفي أرزاقها، اللهم عمها بالرخاء، واكشف عنها كل بلاء، أنت إلهنا وأنت سيدنا وأنت غياثنا وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا، أنزل علينا من رحماتك الآن، فإن القلوب الآن مستعدة لرحمتك، لا تحرمنا من رحمتك، لا تحرمنا خير ما عندك بسوء ما عندنا، يا غفار يا تواب يا حنان يا منان خصنا برحمتك، وخصنا بجودك، وأمطر علينا مِن عفوك وعلى أحبابنا والحاضرين والسامعين والأحياء والأموات يا أرحم الراحمين.

رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم؛ فإنك أنت الأعز العزيز الأكرم.

اللهم بلغ صلاتنا وسلامنا إلى حبيبك وحبيبنا الآن، واجعل الصلاة عليه شرحًا لصدورنا، وشفاء لأمراضنا ولأسقامنا. يا الله قد دعوتك، يا الله يا رحمن يا رحيم قد دعوتك، يا عزيز قد دعوتك، يا قوي قوِّنا، يا معين أعنا، يا كريم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، زدنا ولا تنقصنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، لا زلنا في انتظار كرمك وعفوك، فانظر إلينا نظرة رضا، وأدخل السكينة على قلوبنا، وهبي إلينا يا رائحة الجنة اللهم اجعلنا في روح وريحان وفي جنة نعيم.

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

تعينوني بقوة

تعينوني بقوة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، يا كاشف الهم، يا فارج الغم، يا مجيب دعوة المضطرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، لا إله إلا أنت، يا عز كل ذليل، يا غنى كل فقير، يا مفزع كل ملهوف، يا رافع السماء، يا سامع الدعاء، يا قابل الرجاء، يا كاشف البلاء، يا مَن يصرف الداء، ويعجل بالشفاء، نسألك بعزك وذلنا، نسألك بغناك وفقرنا، نسألك بقوتك وضعفنا أن تجيرنا من النار، اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك، نشهد ألا إله إلا الله ولي الصالحين، وغياث المستغيثين، ومجيب دعوة المضطرين، قال تعالى: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) [النمل: ٦٢].

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، سيرته خير السير، وعطرته خير العطر

محمد سيد الكونين والفريقين والثقلين من عُرب ومن عجمِ
دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد نور الكمال، وكمال النور، ومهبط الأنوار، ومجمع الأسرار، وعلى الآل والصحب الأخيار الأبرار.

وبعد...

أوجب الله على المسلم معرفة الله تعالى، (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد: ١٩].

والعلم بالله هو أصل جميع العلوم، ويجب عليك معرفة منزلة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجب عليك أن تعرف ربك، وأن تعرف رسولك، كما جاء بقوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) [الحجرات: ٧].

واعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فتأدبوا معه؛ فإنه أعلم منكم بما يصلح لكم، يريد بكم الخير، وقد تريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، لو يطيعكم في كثير من الأمر مما تختارونه لأدى ذلك إلى مشقتكم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وحسَّنه في قلوبكم، فآمنتم، وكرَّه إليكم الكفرَ بالله والخروجَ عن طاعته، ومعصيتَه، أولئك المتصفون بهذه الصفات هم الراشدون السالكون طريق الحق.

وقال تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الأنفال: ٣٣]. أي: وما كان الله سبحانه وتعالى ليعذِّب هؤلاء المشركين، وأنت -أيها الرسول- بين ظهرانَيْهم، وما كان الله معذِّبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم.

في هذا الدرس نبيِّن فيه معنى (أعينوني بقوة)، فاللهم أعنا على ذِكرك وشُكرك وحُسن عبادتك...

لا تدوم لك الحياة مهما كان الإنسان مستقلًّا بنفسه، مكتفيًا بها، ولا تدوم له الحياة إلا إذا كان هناك عون من الله تعالى، فما دام الإنسان ذليلًا إلى ربه محتاجًا إليه فهو منصور، وإذا أوكلت نفسك إلى نفسك، واعتز الإنسان بنفسه فهو مهزوم؛ لأنك تستمد القوة من الله، (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [البقرة: ١٦٥].

وذو القرنين هذا الملك الصالح الذي مَكَّن الله له الأسباب، وفتح الله به الأبواب، ورفع الله تعالى به الإسلام، ومَكَّن له في الأرض حتى بلغ مغرب الشمس ثم مطلع الشمس، وكانت له مرحلة ثالثة حتى إذا بلغ بين السدين، والسدان هما: جبلان عظيمان في آسيا الصغرى، وهو موجود إلى يومنا هذا، ولكنه سر من أسرار الله، (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) [الكهف: ٩٣]، لكنهم كانوا يعرفون الإيمان، ويعرفون رمز الإيمان، وكانوا يعلمون أن هذا الرجل له عند الله تعالى مكانة وسلطان، فقال تعالى: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: ٩٤].

قالوا يا ذا القرنين: إنَّ يأجوج ومأجوج -وهما أمَّتان عظيمتان من بني آدم- مفسدون في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، فهل نجعل لك أجرًا، ونجمع لك مالًا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا يحول بيننا وبينهم؟

كأنه معروف لديهم، فقال تعالى: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: ٩٤].

والمعنى: إننا نعطيك أموالنا، ثم تقوم أنت بحل هذه المشكلة؛ لأن يأجوج ومأجوج يأتون علينا فيأكلون كل شيء، وفي بعض الروايات كانوا يأكلون البشر، فقال تعالى عنهم: (مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: ٩٤]. يعني: نعطيك مالًا.

هذا الرجل مسلم، والمسلم لا يتعاظم إلا بالله، ولا يدعي الذكاء والعبقرية لنفسه، ولا يثق في نفسه أكثر من اللازم، وإنما يثق في ربه الذي أعطاه، ويتواضع لقيوم السماوات والأرض، فالجبال تواضعت لخالقها، والأشجار تواضعت لخالقها، والطيور تواضعت لخالقها، والأرض تواضعت لخالقها، والسماء تواضعت لخالقها، قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت: ١١].

قال ذو القرنين: ما أعطانيه ربي من الملك والتمكين خير لي مِن مالكم، فأعينوني بقوة منكم أجعل بينكم وبينهم سدًّا. أي: إنني لن أعمل بقوتي وإنما سأعمل بقوة من أعانني، من الذي أعانه وأعانكم؟ الله تعالى كما جاء بقوله تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل: ٧٨-٧٩].

والله سبحانه وتعالى أخرجكم مِن بطون أمهاتكم بعد مدة الحمل، لا تدركون شيئًا مما حولكم، وجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلكم تشكرون لله تعالى على تلك النعم، وتفردونه عز وجل بالعبادة، ألم ينظر المشركون إلى الطير مذللات للطيران في الهواء بين السماء والأرض بأمر الله ما يمسكهن عن الوقوع إلا هو سبحانه بما خَلَقه لها، وأقدرها عليه؟ إن في ذلك التذليل والإمساك لَدلالات لقوم يؤمنون بما يرونه من الأدلة على قدرة الله.

فالذي يعرف مكانة الله وعظمته يخشى الله ولا يعصيه أبدًا، كما قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [النازعات: ٤٠-٤١].

وأمَّا مَنْ خاف القيام بين يدي الله للحساب، ونهى النفس عن الأهواء الفاسدة، فإن الجنة هي مسكنه.

فذو القرنين يعرف مكانة ربه، فقال: ما مكني فيه ربي لا قيمة لي إلا بربي، فالمسلم يستشعر عظمة الله تعالى معه، هكذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم في أذكار الصباح والمساء، والاعتراف لواهب النعم بأن الشكر واجب له وحده: "اللهم ما أصبح بي من نعمة، أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك" [أخرجه ابن حبان، رقم ٨٦١]، كما جاء في قوله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) [النحل: ٥٣].

وما بكم مِن نعمةِ هدايةٍ، أو صحة جسم، وسَعَة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمِنَ الله وحده، فهو المُنْعِم بها عليكم، ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقحط فإلى الله وحده تَضِجُّون بالدعاء.

ثم قال تعالى: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) [الكهف: ٩٥].

قال ذو القرنين: ما أعطانيه ربي من الملك والتمكين خير لي مِن مالكم، فأعينوني بقوة منكم أجعل بينكم وبينهم سدًّا.

وهذا درس مهم بأن المسلم ليس له مشيئة في شيء، إنما المشيئة كلها لله، كما قال تعالى: (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير: ٢٩]. أي: وما تشاؤون الاستقامة، ولا تقدرون على ذلك، إلا بمشيئة الله رب الخلائق أجمعين.

فمشيئتك لنفسك لن تفلح أبدًا؛ ولذا قال الله عز وجل: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا) [الكهف: ٢٣]. أي: ولا تقولنَّ لشيء تعزم على فعله: إني فاعل ذلك الشيء غدًا إلا أن تُعَلِّق قولك بالمشيئة، فقال في الآية التي لحقتها على الفور: (إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) [الكهف: ٢٤]. فتقول: إن شاء الله. واذكر ربك عند النسيان بقول: إن شاء الله، وكلما نسيت فاذكر الله؛ فإن ذِكْرَ الله يُذهِب النسيان، وقل: عسى أن يهديني ربي لأقرب الطرق الموصلة إلى الهدى والرشاد.

فقوله تعالى: (ما مكني فيه ربي خير)، هذه قاعدة أساسية مهمة جدًّا أن التمكين في الأرض ليس بالمال وليس بالجاه وليس بالسلطان وليس بقوة السلاح، وإنما التمكين في الأرض من الله، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة: ٢٤]. وجعلنا من بني إسرائيل هداة ودعاة إلى الخير، يأتمُّ بهم الناس، ويدعونهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده وطاعته، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية حين صبروا على أوامر الله، وترك زواجره، والدعوة إليه، وتحمُّل الأذى في سبيله، وكانوا بآيات الله وحججه يوقنون.

وما حدث مع يوسف عليه السلام معجزة تدل على ما نقول: كيف يتحول هذا العبد الصغير الذي بيع في قصر عزيز مصر إلى أن يكون هو نفسه عزيزًا لمصر؟ مَن الذي مكن له في الأرض؟ قال تعالى: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٥٦].

وكما أنعم الله على يوسف بالخلاص من السجن مكَّن له في أرض "مصر" ينزل منها أي منزل شاءه، يصيب الله برحمته مَن يشاء من عباده المتقين، ولا يضيع أجر مَن أحسن شيئًا مِن العمل الصالح.

ويتحول من شخص يباع إلى الملك، كما جاء بقوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) [يوسف: ٢٠]. أي: وباعه إخوته للواردين من المسافرين بثمن قليل من الدراهم، وكانوا زاهدين فيه راغبين في التخلص منه؛ وذلك أنهم لا يعلمون منزلته عند الله.

يتحول من كونه عبدًا يُباع في سوق الملك إلى أن يكون هو الملك، فمَن مَلَّكَه؟ مَلَّكَه الملكُ سبحانه وتعالى.

فالتمكين من الله لا يكون إلا خيرًا، وأما التمكين من غير الله تعالى هو استبداد، فالذي يأخذ ما ليس له مستبد، والذي ينظر ما ليس في يده مستبد، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) [ص: ٢٣]. أي: قال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون من النعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة، فطمع فيها، وقال: أعطنيها، وغلبني بحجته.

فأخوه أراد أن يأكله، وأراد أن يلتهمه، (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) [ص: ٢٣]. إذن التمكين إذا كان من الله تعالى فهو خير؛ لأجل هذا فقال تعالى: (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) [النصر: ١]. إذا تمَّ لك -أيها الرسول- النصر على كفار قريش، وتم لك فتح "مكة"... فالنصر والفتح من الله وحده.

والمسلمون لم ينتصروا بقوتهم ولا بعدتهم ولا بعتابهم، لقد خرج اليهود مرتين مرة من جنوب لبنان وهم يجرون أذيال الخيبة، ومرة من غزة وهم يجرون بأذيال الخذلان بكلمة الله وبقوة الله، ولو أن الأمور بقوة بالسلاح بالعدد لنسفونا نسفًا، لكن الله تعالى لطيف بعباده، فقال تعالى: (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: ٢٥٥].

الله الذي لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، الحيُّ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بجلاله، القائم على كل شيء، لا تأخذه سِنَة أي: نعاس، ولا نوم، كل ما في السماوات وما في الأرض ملك له، ولا يتجاسر أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، محيط علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة، وما خلفهم من الأمور الماضية، ولا يَطَّلعُ أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وسع كرسيه السماوات والأرض، والكرسي: هو موضع قدمي الرب جل جلاله، ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، ولا يثقله سبحانه حفظهما، وهو العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

فالقاعدة الأولى هي: أن التمكين للمسلمين يأتي أمر من الله، فالمسلمون قد يُعذَّبون، وينكسرون مرة، ويكونون فقراء لا حيلة لهم، لكن الله تعالى وعدهم أنه يستخلفهم في الأرض، ويمكن لهم في الأرض، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، هذا وعد الله، إذن لا خلاف على هذا.

فلا ينبغي أن نستعجل نصر الله؛ لأن نصر الله تعالى قادم لا محالة، ففي صلح الحديبية اشتد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب حب الإسلام، ومِن باب العزة للإسلام، فقال سيدنا عمر وهو منفعل: ألست رسول الله؟ قال: "بلى". ألست نبي الله؟ قال: "بلى"، ثم قال له النبي العظيم صلى الله عليه وسلم: "إني عبدُ الله، ولن يضيعني" [أخرجه البخاري، رقم ٣١٨٢]. إنه صلى الله عليه وسلم عبد لله، وليس عبدًا للدنيا، ولا عبدًا للمال ولا النساء ولا الأهواء ولا الشهوات ولا السلطة ولا المناصب، وإنما قال: "إني عبد الله، ولن يضيعني".

وبعد ذلك بسَنَةٍ دخل النبي صلى الله عليه وسلم فاتحًا مكة، وبعدها بسَنة دخل النبي صلى الله عليه وسلم حاجًّا ومعه مئة ألف مسلم، ونزل قوله تعالى: (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) [النصر: ٢-٣]. أي: ورأيت الكثير من الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، إذا وقع ذلك فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره، إنه كان توابًا على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم.

فالذي أعطاك ومنحك ووهبك هو الله، سبحانك تغير الحال من حال إلى حال، فالإنسان يكون في حالة عسر وفي حالة شدة وفي حالة بلاء ويصدق مع الله فينقلب عسره يسرًا، قال الملك تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [الشرح: ٥].

وقال الملك العظيم تعالى: (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) [الطلاق: ٧].

فمَن الذي يغيِّر الحال من حال إلى حال؟ إنه الله تعالى، فاللهم يا مُغير الحال من حال إلى حال اجعلنا يا ربنا في خير حال، وفي أسعد حال.
فقوله تعالى: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) [الكهف: ٩٥].
هذه هي القاعدة الثانية، فالناس بين السدين كانوا أغنياء يملكون ثروة كبيرة جدًّا، فقالوا لذي القرنين: نعطيك أموالنا وجاهنا وثرواتنا وكل شيء، فقال لهم: لا أريد مالكم، ولو أخذت مالكم سأكون أجيرًا عندكم، بل أريد قلوبكم وعيونكم وأرجلكم وأيديكم، وأريد رجالًا يقفون معي في طاعة الله الذين وصفهم الملك، فقال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب: ٢٣].
من المؤمنين رجال أوفوا بعهودهم مع الله تعالى، وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس: فمنهم من وَفَّى بنذره، فاستشهد في سبيل الله، أو مات على الصدق والوفاء، ومنهم مَن ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وما غيَّروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدَّلوه، كما غيَّر المنافقون.
ليس أي رجال، وإنما رجال بمعنى كلمة رجال، قلوبهم قلوب رجال، وخشوعهم خشوع الجبال، رجال قال عنهم الملك تعالى: (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ) [الأحزاب: ٢٣].
فهؤلاء كانوا الرجا حقًّا، فقد كان أحدهم يصلي فسقط الجدار بجواره، وتبدل المكان وهو واقف يصلي لا يدري ماذا حدث بجواره! فقالوا له: يا إمام، سقط الجدار بجوارك وأنت واقف تصلي ولم تقطع صلاتك، وكان ينبغي أن تقطع صلاتك، فقال: إني أستحي أن أقف بين يدي قيوم السماوات والأرض، وألتفت إلى غيره.
هذه قلوب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَن قضى نحبه، ومنهم مَن ينتظر وما بدلوا تبديلًا، رجال أغنياء بالله، لكن ليس عندهم أرض، ولا يملك وظيفة ولا سيارة، ولكن إذا نظرت في وجوههم وجدت الغنى والرضا كله، ووجدت القناعة كلها، إنه راض بالله، ولسان حاله: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) [الضحى: ٥].

فقوله تعالى عن ذي القرنين: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) [الكهف: ٩٥]، ماذا أراد منهم؟ أراد منهم أُناسًا تعمل أكثر مما تتكلم، إننا نتكلم كثيرًا ولا نعمل، وأريد أناسًا يعملون في صمت، ويحتسبون الأجر مِنَ الله تعالى.

نريد رجلًا وقلبه مع عمله، كأنه يعمل في بيته ويحب للمسلمين وللأمة أكثر مما يحب لنفسه، وأحتاج إلى قلوب نظيفة ليس فيها غل، وليس فيها حقد، وليس فيها حسد، وإنما أريد قلوبًا سليمة نظيفة بيضاء، كما قال الملك: (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فانظر إلى نفسك الآن، وأنت تمشي على رجليك، ولا أحد يحملك ولا تستند على أحد ولا تدفع بكرسي، ولكن هناك آلاف مثلك على الأسرة في المستشفيات لا يصلي الجمعة، آلاف مثلنا في البيوت عندهم شلل، أو عندهم أمراض أخرى.

فلا بد من الرضا والقناعة، كما جاء في قوله تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [طه: ١٣١].

ولا تنظر إلى ما مَتَّعْنا به هؤلاء المشركين وأمثالهم من أنواع المتع، فإنها زينة زائلة في هذه الحياة الدنيا، متعناهم بها؛ لنبتليهم بها، ورزق ربك وثوابه خير لك مما متعناهم به وأدوم؛ حيث لا انقطاع له ولا نفاد.

لأن متاعها قليل، ولأن ثروتها حقيرة، ولأن ظلها يسير، فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بالسوق داخلًا من بعض العالية (مكان بالمدينة)، والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: "أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟" فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: "أتحبون أنه لكم؟" قالوا: والله لو كان حيًّا، كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: "فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم" [أخرجه مسلم، رقم ٢٩٥٧]. فشبه النبي العظيم صلى الله عليه وسلم الدنيا بالجدي الميت الأسك (الأسك: مخروم الأذنين)، فلو كان حيًّا فإن ثمنه بسيطًا فما بالكم بأنه ميت هكذا الدنيا، وقد وصفها الله تعالى فقال: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) [النساء: ٧٧].

فذو القرنين كان عنده قناعة كما قال تعالى: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) [الكهف: ٩٥].
ولأجل هذا قال تعالى: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: ٩٤].
قالوا يا ذا القرنين: إنَّ يأجوج ومأجوج -وهما أمَّتان عظيمتان من بني آدم- مفسدون في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، فهل نجعل لك أجرًا، ونجمع لك مالا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا يحول بيننا وبينهم؟
بدأ هو يشغلهم بطاعة الله، فكلنا في حاجة إلى هذا القلب الذي يساعدنا على طاعة الله من خلال أمرين، فقال تعالى: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) [الكهف: ٩٦].
أعطوني قطع الحديد، حتى إذا جاؤوا به ووضعوه وحاذوا به جانبي الجبلين، قال للعمال: أجِّجوا النار، حتى إذا صار الحديد كله نارًا، قال: أعطوني نحاسًا أُفرغه عليه.
وانظر إلى حركة الإيمان؛ ولذا "كان النبي العظيم صلوات الله عليه في مهنة أهله". فقد علمك النبي العظيم صلى الله عليه وسلم أن العمل في الدنيا يُخرج من الإنسان الذنوب والأوزار التي لا تخرج إلا بهذا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة"، قالوا: فمَا يكفرها يا رسول الله؟ قال: "الهموم في طلب المعيشة" [أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: ١٠٢].
فالذي يعمل في الحياة، ولكن يعمل بصدق وإخلاص وتواضع، وعندما يتكلم عن نفسه فإنما يتواضع مع الله ويتواضع لله عز وجل فإن ذلك من سبب مغفرة الذنوب، (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) [الكهف: ٩٦].

إنه عمل لله، وفي خدمة الناس، ويعرف الرسالة، ويعرف كيف يستفيد من الناس في طاعة الله، والإسلام لا يعرف يد بطالة أبدًا، ولا يعرف فراغًا، فاللسان الغافل عن ذكر الله تعالى مغفول عنه في الملأ الأعلى، حتى لو لم يكن عندك عمل تذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله" [أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ٦٥٢٦].

فليس هناك مسلم في هذه الحياة إلا وهو مكلف تكليفًا من الله سبحانه وتعالى أنه لا يكف عن ذكر الله تعالى أبدًا، كما جاء في قوله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ) [البقرة: ١٥٢].

أمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على مَنْ ذكره، وخصوني -أيها المؤمنون- بالشكر قولًا وعملًا، ولا تجحدوا نعمي عليكم.

فقال لهم: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) [الكهف: ٩٦].

فليس هناك أحد نائم، ولا أحد كسلان، وليس هناك أحد يقول: ليس لي علاقة بالأمر، (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) [الكهف: ٩٦].

فالله تعالى ذكره مرة بأنه سد، ثم ذكره بأنه ردم، السد والردم هذا آية من آيات الله تعالى؛ لأن السد هذا منع دخول يأجوج ومأجوج إلى الأرض، ولو لم يكن هناك سد لبقي يأجوج ومأجوج يفسدون في الأرض إلى يومنا هذا، لكن ربنا جعلهم آية من آيات الله إنهم يعيشون الآن إلى أن يأذن الله تعالى، وعندما يأذن وهم من كل حدب ينزلون، فهم موجودون الآن ويعيشون، لكن الله تعالى أخفاهم.

ثم قال الله تعالى: (فما اسطاعوا)، يعني: حاولوا كثيرًا، لكن قال الله تعالى: (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) [الكهف: ٩٧].

فما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تصعد فوق السد؛ لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لبعد عرضه وقوته.

ورغم أنهم قالوا عنهم: إنهم مفسدون في الأرض، لكن كل كبير هناك من هو أكبر منه حتى تصل إلى الكبير بحق، والكبير بحق هو الله تعالى، وكلٌّ قويٍّ هناك مَن هو أقوى منه حتى تصل إلى أعلى قوة في الأرض، وهي قوة الله، (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) [الكهف: ٩٧].

ثم قال العبد الصالح بعدما رأى كرم الله ونصره، ونجى الناس به، وحمى الناس به في آخر هذه القصة يقول: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: ٩٨].

قال ذو القرنين: هذا الذي بنيته حاجزًا عن فساد يأجوج ومأجوج رحمة من ربي بالناس، فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج جعله دكاء منهدمًا مستويًا بالأرض، وكان وعد ربي حقًّا.

الذي أعانني على هذا هو الله، والذي منحني هو الله، والذي قواني هو الله، (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: ٩٨]، فكرر كملة "ربي" ثلاث مرات.

وفي صحيح البخاري عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" [أخرجه البخاري، رقم ٣٦١٢].

فالصحابة كانوا يذهبون إلى النبي العظيم صلى الله عليه وسلم يستجيرون به بعد الله، وهم مستضعفون يعذبون عذابًا شديدًا، فكانوا يذهبون إلى النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وهو متوسد رداءه بجوار الكعبة ويقولون له: يا رسول الله، ادعو الله تعالى أن ينصرنا، ولو دعا الله لانتصروا على الفور، ولكن النبي العظيم صلى الله عليه وسلم لم يدعُ لهم، وإنما أراد لهم أن يستمروا في الثبات، وأن يستمروا في الشدة وفي البلاء؛ لأنهم لن ترتفع درجاتهم إلا بهذا، وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم لهم: "والله لتسير الظعينة (يعني المرأة) من مكة إلى القادسية (في أرض العراق) لا تخشى إلا الله".

فوعد الله سبحانه وتعالى لنا وعد عظيم، والله تعالى وعدنا بالفرج بعد الشدة، فأنت مثلًا الآن في حر شديد، وهذا الحر قد يتبدل بعد ساعة إلى مطر، فالذي يغير الكون هو الذي يغير الأحوال، فهل أنت واثق في الله؟ قال تعالى: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [آل عمران: ١٠١].

وكيف تكفرون بالله -أيها المؤمنون- وآيات القرآن تتلى عليكم، وفيكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يبلغها لكم؟ ومَن يتوكل على الله ويستمسك بالقرآن والسنة فقد وُفِّق لطريق واضح، ومنهاج مستقيم.

فاللهم هذه نفسي بين يديك (هذا هو التسليم لله)، فإن أحييتها فاجعلها من الصالحين، وإن أمسكتها فاجعلها في عبادك الصالحين.

والإنسان إذا نظر فيما أعطاه الله سبحانه وتعالى يكفي أن ينظر في آية واحدة: (وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات: ٢٢].

وفي السماء رزقكم وما توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب مقدَّر.

أيها المسلم الحبيب، إن الإيمان عبارة عن قوة، والذي عنده قوة سيقيم الليل، والذي عنده قوة سيحفظ القرآن ولو عنده سبعين سنة، والذي عنده قوة سيكفل اليتيم حتى ولو لم يملك مالًا، وسيمسح على رأس اليتيم، ويسأل عن اليتيم، والذي ليس عنده مال يريد أن يزكي، فيزكي بعافيته، ويزكي بصحته، فكل واحد من المسلمين عنده قوة، ولكن لا بد أن تستعملها في طاعة الله.

فاعلم أنك مسئول عن هاتين العينين هل نظرت بهما إلى الحرام أم لا؟ وهل تغض البصر أم أنك تطلق البصر؟ وأنت مسئول عن هذا اللسان هل هو لسان شتام مغتاب نمام أم إنه لسان ذكار شكار؟ وأنت مسئول عن ابنك هل تحفظه القرآن أم يحفظ الأغاني والمسلسلات؟ وأنت مسئول عن ابنك كم حفظ حديثًا من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام؟ ومسئول عن نفسك هل بكرت إلى صلاة الجمعة؟ هل اغتسلت غسل الجمعة؟ هل قرأت سورة الكهف يوم الجمعة؟ هل صليت الفجر في جماعة؟

لذلك ورد في الحديث القدسي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا مَن هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا مَن أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" [أخرجه مسلم: ٢٥٧٧].

فكم استغفرت ربك؟ كما قال تعالى: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا) [نوح: ١٣]، فما لكم -أيها القوم- لا تخافون عظمة الله وسلطانه؟!

لا بد أن تحاسب نفسك، وتراجع نفسك مليون ألف مرة، والدك الذي مات منذ عشرين سنة ترحمت عليه كم مرة؟ وزرته في قبره كم مرة؟ ووصلت الأرحام لأجله كم مرة؟ كل هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات منك، هل أعنت نفسك بقوة على الطاعة أم لا؟

فاللهم إني أسألك وقد جئنا إليك كلنا شوق إليك، وكلنا شوق في رحمتك، وكلنا شوق في عفوك، فاعفُ عنا يا الله.

اللهم إنا واقفون بين يديك، وأنت ناظر إلينا، وأنت مطلع علينا، يا مَن يعلم حالنا، ويرى مكاننا، ولا يخفى عليك شيء مِن أمرنا، نسألك يا الله، اللهم اقبل توبتنا، اللهم اغسل ذلاتنا، اللهم وسِّع أرزاقنا، اللهم استعملنا في طاعتك، اللهم اغسل أوزارنا الآن، اللهم زكنا ونقنا وطهرنا وارفعنا وعافنا واعفُ عنا، لا تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين، شَفِّع المحسنين منا في المسيئين يا الله.

يا فرد يا صمد يا عزيز يا رحيم، أنت غياثنا، وأنت ملاذنا، وأنت قصدنا، وأنت ناظر إلينا، وملائكتك معنا، وأنت الآن تباهي بنا ملائكتك، وتباهي بنا حملة عرشك، وسكان سماواتك، فانظر إلينا، وباهِ بنا ملائكتك، وقل لهم: يا ملائكتي، إن عبادي وأحبابي جالسون في ذكري ومحبتي، أشهدكم يا ملائكتي إني قد غفرت لهم، ومَن يغفر الذنوب إلا الله.

اللهم إنك سترت علينا في الدنيا كثيرًا، فاستر علينا يوم القيامة، ولا تخزنا يوم لا يخزي الله النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تخزِ النبي صلى الله عليه وسلم فينا.

يا قاضي الحاجات اقضِ حاجاتنا، ما لنا سواك يا الله، أنت جاهنا إذا أغلقت الأبواب، أنت جاهنا إذَا انقطعت الأسباب، أنت أنيسنا وكفيلنا وحسبنا وخالقنا ورازقنا.

اللهم لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، اللهم لا تعذب هذه القلوب الشاكرة، اللهم لا تعذب هذه الأقدام الساعية إليك، اللهم لا تعذب هذه الأعين الباكية، اللهم لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يوم القيامة ناعمة ناظرة إليك راضية. أسألك برد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، يا رب لا تخرجنا من الدنيا إلا وقد جبرت خواطرنا في الدنيا والآخرة، لا تخرجنا إلا وقد غسلتنا وطهرتنا ونقيتنا يا رب.

اللهم ثبتنا في الدنيا، وثبتنا بعد الموت وقبل الممات، خفف علينا الحساب، وهوِّن علينا الصعاب، يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام، أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، شفِّع المحسنين منَّا في المسيئين، رب اجعلني مقيم الصلاة ومِن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اللهم بارك في بلادنا، وبارك في أهلها وفي شبابها وفي رجالها وفي نساءها وفي أرزاقها، اللهم عمها بالرخاء، واكشف عنها كل بلاء، أنت الله، وأنت سيدنا وأنت غياثنا، وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا، وأنزل علينا من رحماتك الآن فإن القلوب الآن مستعدة لرحمتك لا تحرمنا من رحمتك، ولا تحرمنا خير ما عندك بسوء ما عندنا، يا غفار يا تواب يا حنان يا منان، خصنا برحمتك، وخصنا بجودك، وأمطر علينا من عفوك، وعلى أحبابنا والحاضرين والسامعين والأحياء والأموات يا أرحم الراحمين.

رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، فأنك أنت الأعز العزيز الأكرم.
اللهم بلغ صلاتنا وسلامنا إلى حبيبك وحبيبنا الآن، واجعل الصلاة عليه شرحًا لصدورنا، وشفاء لأمراضنا ولأسقامنا.
قد دعوتك يا الله يا رحمن يا رحيم، وقد دعوتك يا عزيز، وقد دعوتك يا قوي، فقوِّنا يا معين، وأعنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، ما زلنا في انتظار كرمك وعفوك فانظر إلينا نظرة رضا، وادخل السكينة على قلوبنا، اللهم اجعلنا في روح وريحان، وفي جنة نعيم.
الحمد لله رب العالمين، واهب العطايا، رازق البرايا، واهب السجايا، غافر الذلات، رافع الدرجات، أمره بين الكاف والنون، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: "كن"، فيكون.
والصلاة والسلام على مَن علم الناس الأدب مع الله، والحب في الله، والرضا بالله، والقناعة بما أعطى الله.
اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماض فِيَّ حكمك، عَدْل فِيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أَو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو علمته أحدًا من خلقك أن تجعل القرآن ربيع قلبي.
اللهم إنك خلقتني ورزقتني وأحييتني، فتوفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين، اللهم هذه نفسي بين يديك؛ فإن أحييتها فاجعلها من الصالحين، وإن أمسكتها فاجعلها في عبادك الصالحين.
(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].
وصلِّ اللهم وسلِّمْ وباركْ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إني على بينة من ربي

إني على بينة من ربي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، اللهم لك الحمد كله، ومنك العون كله، ومنك الفتح كله، ومنك النصر كله، ومنك العطاء، (وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [هود: ١٢٣].

اللهم إنك تعطي مَن تشاء، وترزق مَن تشاء، وتهدي من تشاء، وتتوب على مَن تشاء، وتقدم مَن تشاء، وتؤخر مَن تشاء، وتقبض من تشاء، وتبسط لمن تشاء، اللهم إنك أحطت بكل شيء علمًا، اللهم إنك تفتح الأبواب، وترزق العباد، وتعطي مَن تشاء، قال تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل: ٦١].

ونشهد ألا إله إلا الله، باسط اليدين بالعطايا، منزل الرحمات، واسع البركات، أمره بين الكاف والنون، قال تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [البقرة: ١١٧].

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل دينه حتى أتاه الله اليقين، قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) [النساء: ٦٥]. اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب الوجه الأنور، الجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى، وعلى الآل الصحب الغُر الميامين.

وبعد...

أن تعبد الله على بينة وعلى صدق وعلى فهم فهذه خير العبادة، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد: ١٩]، وعندما تصل إلى مرحلة البينة ومرحلة اليقين فإنك لن تغضب الله أبدًا، قال الملك سبحانه وتعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [إبراهيم: ١٤]. أي: ولنجعلن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، ذلك الإهلاك للكفار وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لِمَن خاف مقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخشي وعيدي وعذابي.

ولكي تخشى الله لا بد أن تعرف قدرته تعالى، وعندما تعرف قدرته فإنك تعبده على بيِّنَة، بمعنى أنك إذا قلت: سمع الله لمن حمده، بعد أن ترفع من الركوع، فإنك تعلم أن الله تعالى يستمع إليك الآن، هذه بينة، فإذا ما سجدت وكان صوتك منخفضًا لا يسمع صوتك إلا الله، فالملك يعلم بما ناجيته قبل أن تقوله، هذه هي البينة.

فالبينة أن تعلم أن ما سيجري عليك إلى أن تموت تفاصيله كلها عند الله، وأن تعلم أن الله تعالى قبل أن يخلق الكون علم ما سيجري فيه، ومَن يعيشون فيه، ومَن يموتون فيه، ومَن يتزوجون فيه، وماذا يُخلق في هذه الأرض، وماذا ينبت فيها، قال تعالى: (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) [مريم: ٩٤]، أي: لقد أحصى الله سبحانه وتعالى خَلْقَه كلهم، وعلم عددهم، فلا يخفى عليه أحد منهم.

وقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: ٢٦]، أي: ثم إن علينا جزاءهم على ما عملوا.

وقال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى) [النازعات: ٤٠-٤١]. أي: وأمَّا مَنْ خاف القيام بين يدي الله للحساب فإن الله قد جعل جزاءه الجنة.

واعلم أخي المسلم أن أشد الناس بينة بالله هم أنبياء الله؛ لإحساسهم أن الله تعالى معهم في كل لحظة، ويراقبهم ويوجههم من فوق سبع سماوات.

ورد في السنن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها، فكان يخفى عَلَيَّ كلامها، فأنزل الله عز وجل: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [المجادلة: ١].

فالسيدة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها جاءت إلى النبي العظيم صلى الله عليه وسلم تشكو حالها، وتقول له: يا رسول الله، إن زوجي ظاهر مني، يعني: قال لي: أنت عليَّ كظهر أمي، أو كظهر أختي، وجلست هذه السيدة تشكو حالها إلى النبي العظيم صلى الله عليه وسلم، وتشكو حال زوجها وأن لها ذُرية صغارًا إن تركهم إليها جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا، والسيدة عائشة رضي الله تعالى عنها موجودة في نفس الْحُجْرة ولم تسمع الحوار الذي دار بين النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وبين السيدة خولة، فنزل قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللهُ...) الآيات.

فهي تكلمه وكلامها يصل إلى عرش الرحمن، وسمعها الرحمن جل في علاه، وانظر للمسافة الفاصلة بين كلامها، وصعود الكلام إلى الله تعالى، وتلقي جبريل عليه السلام للقرآن لكي ينزل به إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل تستطيع أن تحسب الزمن الذي مَرَّ؟! إنه مِن علم الله تعالى، فما هي إلا لحظة واحدة، أو برهة من الزمن حتى نزل قول الله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [المجادلة: ١].

فالأنبياء على هذه الحالة، كلما تظهر له مشكلة، وكلما يأتي إليه أحد لكي يسأله فإذا بالوحي يتنزل عليه في نفس اللحظة، فنجد الإنسان يسأل السؤال ولم يكمله، وينزل الوحي من السماء، كما في قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥]. أي: ويسألك الكفار عن حقيقة الروح تعنتًا، فأجبهم بأن حقيقة الروح وأحوالها من الأمور التي استأثر الله بعلمها، وما أُعطيتم أنتم وجميع الناس مِنَ العلم إلا شيئًا قليلًا.

والملائكة أشد التصاقًا برحمة الله وبعظمة الله؛ لأنهم يشاهدون ملك الله وملكوته، وهم دائمًا في التفكر في عظمة الله؛ ولذا قال الملك سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) [الأعراف: ٢٠٦]؛ لأنهم يشاهدون من عظمته في أبواب السماء، وفي خلق السماء، وفي خلق الأرض، وفي خروجهم من السماء ونزولهم إلى الأرض، يشاهدون من قدرة الله ما لا يعلمه إلا الله جل في علاه، فهناك مخلوقات تعيش في هذا الكون بخلاف الإنس والجن والملائكة، هناك مخلوقات كثيرة في هذا الكون لا يعلمها إلا الله، إنما تراها الملائكة؛ ولذا قال الملك سبحانه وتعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [النحل: ٨]. أي: وخلق لكم الخيل والبغال والحمير؛ لكي تركبوها، ولتكون جمَالًا لكم ومنظرًا حسنًا، ويخلق لكم من وسائل الركوب وغيرها ما لا عِلْمَ لكم به؛ لتزدادوا إيمانًا به وشكرًا له.

فأنت تعيش في دنيا، ولكن هناك دنيا ثانية وثالثة لا يعلم منتهاها إلا الله، لكن الملائكة يعرفونها ويعلمونها بإذن الله؛ ولذلك فإنهم أشد مخافة لله تعالى، وأشد ارتعادًا، وأشد مخافة لله؛ ولذا قال الملك: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) [الرعد: ١٣].

ويسبِّح الرعد بحمد الله تسبيحًا يدل على خضوعه لربه، وتنزِّه الملائكة ربها مِن خوفها من الله، ويرسل الله الصواعق المهلكة فيهلك بها مَن يشاء من خلقه، والكفار يجادلون في وحدانية الله وقدرته على البعث، وهو شديد الحول والقوة والبطش بمن عصاه.

فهم خائفون لأن هناك مظاهر عظمة لله تعالى لا يعلمها إلا الله تعالى وملائكته المكرمون، يقول الله تعالى عن أحد هؤلاء الملائكة المقربين: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) [ق: ٤١]. أي: واستمع -أيها الرسول- يوم ينادي المَلَك بنفخه في "القَرْن" من مكان قريب.

فالمنادي هو اسرافيل عليه السلام، والمكان القريب هو صخرة بيت المقدس، فسيدنا إسرافيل الآن منتظر الأمر من الله تعالى، وهذا دليل على عظمة هذا الملك الكريم، وعلى عظمة الله تعالى الذي خلقه؛ لأجل هذا فإن الله تعالى قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم: ٦].

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، واحفظوا أهليكم بما تحفظون به أنفسكم من نار وقودها الناس والحجارة، يقوم على تعذيب أهلها ملائكة أقوياء قساة في معاملاتهم، لا يخالفون الله في أمره، وينفذون ما يؤمرون به.

كما أنه لا توجد معصية عند الملائكة؛ لأنهم على بيِّنَةٍ من الله تعالى، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم: ٦].

فملائكة الله تعالى ورسله هم أشد المخلوقات ثقة ومحبة لله تعالى، كما جاء في قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) [الأنعام: ٥٧].

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليَّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، وقد كذَّبتم بهذا، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى، يقصُّ الحقَّ، وهو خير مَن يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه.

هذه الجملة قالها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عندما أراد الكفار أن يراودوه ليترك الدعوة إلى الله، فقالوا له: نعطيك مالًا، ونعطيك نساءً، ونعطيك ملكًا، ونعطيك جاهًا، ونعطيك ذهبًا، فيرد عليهم: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي) [الأنعام: ٥٧].

وسيدنا سليمان عليه السلام عندما جيء له بكنوز مملكة سبأ، ووضعت أمامه تصورت هذه السيدة بلقيس أن هذا الذهب وهذه الكنوز ستُغري سيدنا سليمان، وأنه سيفرح بها عندما أرسلَتْ له أفضل ما عندها من مجوهرات ونفائس، لكنه عليه السلام نظر إلى هذه الدنيا نظرة احتقار وليس إعجاب ولا فرح، وقال: (فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) [النمل: ٣٦]. أي: فلمَّا جاء رسول الملكة بالهديَّة إلى سليمان، قال مستنكرًا ذلك متحدثًا بأَنْعُمِ الله عليه: أتمدونني بمالٍ تَرْضيةً لي؟ فما أعطاني الله من النبوة والملك والأموال الكثيرة خير وأفضل مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم؛ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها.

فرفض أن يأخذ شيئًا، ولسان حاله: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٨]. أي: قل أيها الرسول لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، فبذلك فليفرحوا؛ فإن الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

فالمسلم يفرح بنعمة الله، فهذا أحد الصالحين قيل له: لقد صار ابنك وزيرًا أ وأميرًا أو صار قاضيًا، فقال: لو قلتم لي: إنه مات لكان خيرًا له؛ لأنني أعلم كيف سيقف بين يدي الله، وسيحمل مسؤولية الناس.

فالذي يُقِيم الليل ولو بركعتين له لذة، وله شوق، وله اشتياق، وله مناجاة، ويشعر أن هذه الساعة هي ساعته لا ينبغي أن ينام فيها، يقول أحد المتهجدين والمناجين والمتضرعين حين يقيمون الليل: نحن في لذة وفي متعة لو جالدنا عليها الملوك بالسيوف لجالدناهم، يعني: متعتهم بالعبادة أفضل من متعة الملوك والرؤساء بالسلطة؛ لأن الله تعالى وصفهم بقوله: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: ١٧-١٨]. أي: كان هؤلاء المحسنون قليلًا من الليل ما ينامون، يُصَلُّون لربهم قانتين له، وفي أواخر الليل قبيل الفجر يستغفرون الله من ذنوبهم.

وقال تعالى في وصفهم: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة: ١٦-١٧]. أي: لا يعرف أن ينام فتضيع عليه صلاة الفجر، وقيام الليل، والمناجاة في وقت يتنزل فيه الملك سبحانه بكيفية لا نعرفها إلى السماء الدنيا ويقول: مَن يدعوني فأستجيب له؟ فنزل إليك الملك ليقول لك: هذه أبواب رحمتي وأنت ما زلت نائمًا؟! الملك سبحانه يناديك: مَن يدعوني؟ مَن يستغفرني؟

فالمؤمنون ترتفع جنوبهم عن فراش النوم، ويتهجدون لربهم في صلاة الليل، ويدعون ربهم خوفًا من العذاب، وطمعًا في الثواب، ومما رزقناهم ينفقون في طاعة الله وفي سبيله.

فهل أنت الآن على بينة؟! هل أنت في روضة من رياض الجنة؟ هل أنت على بيِّنَة أن ملائكة الرحمن معك الآن؟ هل أنت على بينة أن الرحمات تصب عليك الآن من السماء صبًّا؟ هل أنت على بينة أن الرحمن يباهي بكم ملائكته في السماء؟ إذا كنت على بينة فأنت في فضل كبير، وأنت في كرم كبير، وأنت في رضا من الله، قال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبا) [الفتح: ١٨].

أي: لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك -أيها النبي- تحت الشجرة (وهذه هي بيعة الرضوان في "الحديبية")، فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الإيمان والصدق والوفاء، فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبَّت قلوبهم، وعوَّضهم عمَّا فاتهم بصلح "الحديبية" فتحًا قريبًا، وهو فتح "خيبر".

فالناس قديمًا كانوا يحتاجون إلى بينة حسية، وشيء يشاهدونه ويمسكونه بأيديهم، فطلبوا البينة فأعطاهم الله البَيِّنة، ورغم هذا كفروا بالله، فقوم ثمود أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فطلبوا ناقة وتأتي هذه الناقة وهي عُشراء ومعها فصيلها، فأخرج الله لهم ناقة من الصخرة، وتخرج الناقة عشراء ومعها فصيلها، لا يفعل هذا إلا الله، وهذا شيء فوق استيعاب البشر، ولكن بالنسبة لقدرة الله لا شيء، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [فاطر: ٤١].

إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا عن مكانهما، ولئن زالت السماوات والأرض عن مكانهما ما يمسكهما من أحد من بعده. إن الله كان حليمًا في تأخير العقوبة عن الكافرين والعصاة، غفورًا لمن تاب من ذنبه ورجع إليه.

فأخرج الله جل في علاه لهم الناقة، لكن الله جل جلاله اشترط عليهم شرطًا أن هذه الناقة ستعطيكم لبنًا يكفي لجميع الناس، وكان هذا المكان يوجد فيه أكثر من خمسين ألف إنسان، فقال تعالى: (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) [الشعراء: ١٥٥]. أي: قال لهم صالح -وقد أتاهم بناقة أخرجها الله له من الصخرة-: هذه ناقة الله لها نصيب من الماء في يوم معلوم، ولكم نصيب منه في يوم آخر، ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم.

فقال لهم سيدنا صالح عليه السلام: حافظوا على الناقة، فهي تشرب يومًا وأنتم تشربون يومًا، وتأخذون لبنها وتستمتعون بخيرها، فاجتمع أسوأ مَن في الأرض (أُحيمر ثمود) هكذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم فعن عمار بن ياسر، قال: كنت أنا وعليٌّ رفيقين في غزوة ذات العشيرة، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقام بها، رأينا أناسًا من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي عليٌّ: يا أبا اليقظان، هل لك أن نأتي هؤلاء، فننظر كيف يعملون؟ فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعليٌّ فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب، فنمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركنا برجله، وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "يا أبا تراب"؛ لما يرى عليه من التراب، قال: "ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه، يعني قرنه، حتى تبل منه هذه، يعني لحيته".

فسيدنا صالح يقول لهم: حافظوا على هذه الناقة، كما قال تعالى: (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [الشمس: ١٣]. أي: فقال لهم رسول الله صالح عليه السلام: احذروا أن تمسوا الناقة بسوء؛ فإنها آية أرسلها الله إليكم، تدل على صدق نبيكم، واحذروا أن تعتدوا على سقيها، فإن لها شِرْب يوم ولكم شِرْب يوم معلوم، فشق عليهم ذلك، قال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاها) [الشمس: ١٤]، أي: فكذبوه فيما توعَّدهم به فنحروها، فأطبق عليهم ربهم العقوبة بجرمهم، فجعلها عليهم على السواء فلم يُفْلِت منهم أحد.

ثم قال تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) [هود: ٦٥]. أي: فكذَّبوه ونحروا الناقة، فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم بعدها، وذلك وَعْدٌ من الله غير مكذوب، لا بد من وقوعه.

ففي اليوم الأول اصفرت وجوههم، وفي اليوم الثاني ازرقت، وفي اليوم الثالث اسودت، انتظروا عقوبة الله، وانتظروا حكم الله عليكم، ولكن قبل أن تشاهدوا حكم الله شاهدوا ما سيجري عليكم وعلى جلودكم، وفي اليوم الثالث صاروا جميعًا في حالة من غضب الله تعالى، فجميع الوجوه علاها السواد، (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) [هود: ٦٥].

في آخر اليوم الثالث أخذتهم صاعقة فأزهقتهم جميعًا بنفس واحد بقدرة الله العظيم، فهم شاهدوا البيِّنَة، وشاهدوا اللبن وهو بينة، وشاهدوا الماء وهو بينة، وشاهدوا عذاب الله عليهم وهو أشد بينة، وماتوا كفارًا؛ لأنهم كانوا حاقدين على سيدنا صالح عليه السلام؛ لأنهم لم يعرفوا قدرة الله، ولا عظمة الله رغم أنهم اشترطوا شرطًا فأعطاهم الله تعالى، وطلبوا ناقة فجيء لهم بالناقة، وليست كأي ناقة، ورغم هذا ما صدقوا بالله، وما آمنوا بالله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وبنو إسرائيل مع سيدنا عيسى عليه السلام يسألونه سؤالًا صعبًا: هل يستطيع ربك؟ كأنهم في حالة شك، فهذا السؤال فيه قلة أدب مع الله جل في علاه.

إن السماء ملكه، والأرض ملكه، وكل شيء ملكه، أيتعاظم عليه شيء وهو الملك؟ السؤال نفسه ليس كريمًا أبدًا، ورغم هذا قال سيدنا عيسى عليه السلام: (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [المائدة: ١١٤].

أجاب عيسى ابن مريم طلب الحواريين فدعا ربه جل وعلا قائلًا: ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء، نتخذ يوم نزولها عيدًا لنا، نعظمه نحن ومَن بعدنا، وتكون المائدة علامة وحجة منك يا الله على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي، وامنحنا من عطائك الجزيل، وأنت خير الرازقين.

هل لا بد أن تكون من السماء؟! ألا يجوز أن تخرج من الأرض؟ لا، هم اشترطوا أن تكون من السماء، فأنت جالس الآن، وفجأة تنزل عليك مائدة من السماء، هل ستنزل وحدها أم بقدرة الله تعالى؟ بقدرة الله طبعًا.

ثم حضر الناس ووقفوا آلافًا مؤلفة، وفجأة نزلت المائدة من السماء أمامهم، هل هناك بيِّنَة أشد من هذه؟ لا يوجد، فنزلت المائدة أمامهم وعليها طعام من الجنة، وظلوا يأكلون من المائدة ثلاثة أيام ولم ينتقص منها شيء، وما بقي لكم إلا أن تؤمنوا بالله، لكنهم كفروا بالله! فَهُم أكلوا من مائدة الله وكفروا لأنعم الله! فلما كفروا قال سيدنا عيسى عليه السلام: (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة: ١١٨].

إنك يا الله إن تعذبهم فإنهم عبادك -وأنت أعلم بأحوالهم-، تفعل بهم ما تشاء بعدلك، وإن تغفر برحمتك لمن أتى منهم بأسباب المغفرة، فإنك أنت العزيز الذي لا يغالَبُ، الحكيم في تدبيره وأمره. وهذه الآية ثناء على الله تعالى بحكمته وعدله، وكمال علمه.

فهم أكلوا من المائدة، وكفروا برب المائدة؛ لأجل هذا ينزل الله علينا بينات عجيبة جدًّا، فالشمس تكون مختفية أحيانًا وتظهر أحيانًا، وبعد ساعات تذهب الشمس ويذهب النهار ويأتي الليل، وبعد ساعات يذهب الليل ويأتي النهار، فمَن يقلب االليل والنهار؟ هذه بيِّنَة لا توجد بينة بعدها، قال تعالى: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [الأنعام: ٩٦].

والله سبحانه وتعالى هو الذي شق ضياء الصباح من ظلام الليل، وجعل الليل مستقرًا، يسكن فيه كل متحرك ويهدأ، وجعل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب متقن مقدَّر، لا يتغير ولا يضطرب، ذلك تقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه وتدبير شئونهم. والعزيز والعليم من أسماء الله الحسنى يدلان على كمال العز والعلم.

فلم تحتجب الشمس يومًا ولم تقل: لن أخرج اليوم، ولم يحتجب القمر عن موعده؛ لأنهما يسيران بنظام دقيق، قال تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: ٤٠].

لكل من الشمس والقمر والليل والنهار وقت قدَّره الله له لا يتعدَّاه، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر فتمحو نوره، أو تغير مجراه، ولا يمكن للَّيل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، وكلٌّ مِن الشمس والقمر والكواكب في فلك يَجْرون. فمَن صاحب الفلك؟ إنه الله جل في علاه.

هناك سورة في القرآن اسمها سورة البيِّنَة، وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبَيٍّ: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) [البينة: ١]"، قال: وسماني؟ قال: "نعم"، فبكى.

فعندما نزلت سورة البينة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه –وهز من الصحابة الكرام كَتَبَةِ الوحي- فطرق عليه بابه، وقال له: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة"، فقال له: هل سماني ربي؟! أي: هل قال ربنا في الملأ الأعلى: أُبي أبن كعب؟ وهل أنا معروف لهذه الدرجة؟! وبكى رضي الله عنه.

فعلموا أولادكم سورة البينة؛ لكي يكونوا على بينة من ربهم، وعلموا أولادكم حفظ القرآن؛ لكي يكونوا على بيِّنَة من ربهم، فالذين كتبوا الوحي أكرمهم الله كرمًا عظيمًا، ومنهم أُبَي بن كعب.

وكان هناك شخص من كتبة الوحي كان نصرانيًّا ثم أسلم وحسن اسلامه، فصار يكتب الوحي لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد عن أنس رضي الله عنه، قال: كان رجل نصرانيًّا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانيًّا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبتُ له! فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه.

فهذا الرجل أتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال: إني ارتددت عن الإسلام، ولكني وضعت لك قرآنًا من عند نفسي، وكتبته لك في المصحف! وبعد أن أرتد الرجل عن الإسلام مات كافرًا، فأرادوا أن يدفنوه، فذهبوا فدفنوه، وعندما هموا أن ينصرفوا فإذا بالأرض تلفظه، فحفروا له في مكان آخر فتعمقوا في الحفر، فلفظته الأرض ثانية، فظلوا يحاولون أن يدفنونه، وكلما حاولوا أن يحفروا في مكان آخر فإن الأرض تلفظه؛ لأنه لفظ كلام الله تعالى، وفي النهاية تركوه وانصرفوا كي تأكله السباع والوحوش والطيور والهوام، تركوه لأنه ترك كلام الله تعالى، وهذه بينة قوية على أن الأرض مأمورة بأمر الله، وأن الأرض من جنود الله.

جاء الكفار إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا محمد لنا عندك طلب، وهو أن ترقى إلى السماء بسلم طويل عالٍ، وبعد هذا تأتي إلينا بكتاب يوقع عليه الملائكة المقربون أنك رسول الله! أبعد كل هذه البينات والعظات والأدلة تحتاجون لذلك، تريدون ورقة مختوم عليها من إسرافيل وميكائيل وجبريل؟ وبعد هذا ستأتي إلينا بهذه الورقة، وفي النهاية لن نصدق بك! ولكن عَزَّ عليهم أن يقولوا: الحمد لله، كما جاء بقوله تعالى: (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً) [الإسراء: ٩٣].

أي: أو يكون لك بيت من ذهب، أو تصعد في درج إلى السماء، ولن نصدِّقك في صعودك حتى تعود، ومعك كتاب من الله منشور نقرأ فيه أنك رسول الله حقا، قل أيها الرسول متعجبًا مِن تعنُّت هؤلاء الكفار: سبحان ربي! هل أنا إلا عبد من عباده مبلِّغ رسالته؟ فكيف أقدر على فعل ما تطلبون؟

وذلك يقول تعالى أيضًا: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ.......) [الأنعام: ٥٧]. أي: لو أن طلباتكم الدنيوية عندي لقضي الأمر بيني وبينكم وهو أعلم بالظالمين، وكما جاء في قوله تعالى: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [الأنعام: ٥٩].

وعند الله جل وعلا مفاتح الغيب -أي: خزائن الغيب- لا يعلمها إلا هو، ومنها: علم الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، والكسب في المستقبل، ومكان موت الإنسان، ويعلم كل ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة من نبتة إلا يعلمها، فكل حبة في خفايا الأرض، وكل رطب ويابس، مثبت في كتاب واضح لا لَبْس فيه، وهو اللوح المحفوظ.

فالرزق مقسوم لا محالة، مكتوب على الحبة المزروعة: هذه رزق فلان، فلم ولن تُخطئ فلانًا أبدًا.

هذه آية واحدة ولكن هناك مفاجأة، لعلك تكون قد حفظت هذه الآية الآن، فهذه الآية نزل بها على قلب النبي العظيم صلى الله عليه وسلم اثنا عشر ألف ملك، يسدون الأفق، ثم قال تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر: ٢١]. أي: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، ففهم ما فيه من وعد ووعيد، لأبصَرْته على قوته وشدة صلابته وضخامته، خاضعًا ذليلا متشققًا من خشية الله تعالى. وتلك الأمثال نضربها، ونوضحها للناس ؛ لعلهم يتفكرون في قدرة الله وعظمته. وفي الآية حث على تدبر القرآن، وتفهم معانيه، والعمل به.

وهذه بيِّنة من الله تعالى لأهل سبأ، كما قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) [سبأ: ١٥].

لقد كان لقبيلة سبأ باليمن في مسكنهم دلالة على قدرتنا: بستانان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له نعمه عليكم؛ فإن بلدتكم كريمة التربة حسنة الهواء، وربكم غفور لكم.

وكأن الله تعالى يقول لهم: نريد أن نستمع منكم كلمة الحمد لله، فأنتم تأكلون وتشربون بلا فلاحة ولا زراعة، والحدائق موجودة من مئات السنين، فخذوا من الحدائق وتمتعوا، ولا تقول شيئًا إلا أن تقولوا: الحمد لله، ولكن عز عليهم أن يقولوا: الحمد لله، واستكبروا أن يقولوها.

وانظر إلى البينة كما قال تعالى: (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) [سبأ: ١٦].

فأعرضوا عن أمر الله وشكره وكذبوا الرسل، فأرسلنا عليهم السيل الجارف الشديد الذي خرَّب السد وأغرق البساتين، وبدَّلناهم بجنتيهم المثمرتين جنتين ذواتَيْ أكل خمط، وهو الثمر المر الكريه الطعم، وأَثْل وهو شجر شبيه بالطَّرْفاء لا ثمر له، وقليل من شجر النَّبْق كثير الشوك.

فكل هذا النعيم ذهب في لحظة واحدة، قال تعالى: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) [سبأ: ١٧].

ذلك التبديل من خير إلى شر بسبب كفرهم، وعدم شكرهم نِعَمَ الله، وما نعاقب بهذا العقاب الشديد إلا الجَحود المبالغ في الكفر، يجازى بفعله مثلًا بمثل. فهم كفروا أن يقولوا: الحمد لله، (وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) [سبأ: ١٧].

ثم قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) [سبأ: ١٨]. أي: وجعلنا بين أهل سبأ -وهم باليمن- والقرى التي باركنا فيها -وهي الشام- مُدنًا متصلة يُرى بعضها من بعض، وجعلنا السير فيها سيرًا مقدَّرًا من منزل إلى منزل لا مشقة فيه، وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أيِّ وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدوًّا، ولا جوعًا ولا عطشًا.

لأجل هذا -أخي المسلم- أنت الآن بعد أن قرأت هذا الدرس لست في حاجة إلى بينة؛ لأنك الآن صرت على بينة من ربك، فول قيل لك: احضر شخصًا متوضئًا وآخر غير متوضئ، وهناك أجهزة معينة تقيس الأشعة الداخلة على الجسم، لوجدت أن الإنسان المتوضئ تخرج منه أشعة تحميه، والذي يصلي الفجر لا يصيبه أذى في يومه هذا، فتبين أن هذا من بركة صلاة الفجر وبركة الوضوء، أو ليست هذه بينة من الله؟! ألم ترى شخصًا يموت أمامك كان يصلي ووقفت على غُسله ورأيت وجهه وقد أشرق نورًا؟ قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) [فصلت: ٣٠].

إن الذين قالوا: ربنا الله تعالى وحده لا شريك له، ثم استقاموا على شريعته، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون بها.

ألم ترى أحدًا لم يكن يصلي، وكان يكذب، ووقفت على غُسله، ورأيت وجهه أسود، كما قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ) [الأنفال: ٥٠]، أي: ولو تعاين أيها الرسول حال قبض الملائكة أرواح الكفار وانتزاعها، وهم يضربون وجوههم في حال إقبالهم، ويضربون ظهورهم في حال فرارهم، ويقولون لهم: ذوقوا العذاب المحرق، لرأيت أمرًا عظيمًا، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة "بدر"، ولكنه عام في حق كلِّ كافر. لقد رأينا هذا ورأينا هذا، إذن هذه بينة لك وللعالمين.

جاء في بعض كتب التاريخ أنه في القرن الخامس أنهم كانوا يصلون العصر، وهم خارجون يمرون على المقابر، فيشاهدون رجلًا تنفتح مقبرته ثم تخرج رجلاه إلى أعلى ويشاهدون النار محترقة في رجليه، وهذا المشهد تراه البلدة كلها، وبعد قليل تغلق المقبرة! فما قصته؟ فسألوا عنه فذهبوا إلى أمه، وسألوها: ماذا كان يفعل ولدك يا أماه؟ فقالت: كنت إذا قلت له: قم كي تصلي فإنه كان يقوم ويضربني! وظل هكذا ثلاثة شهور، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، أي: بل القرآن آيات بينات واضحة في الدلالة على الحق يحفظه العلماء، وما يكذِّب بآياتنا ويردها إلا الظالمون المعاندون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

لأجل هذا قال لك النبي العظيم صلى الله عليه وسلم: "اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

عندما كنت أعمل أستاذًا في جامعة أم القرى في مكة، وكنت أذهب إلى المدينة كثيرًا، فجلست مع رجل كبير في السن فأقول له: قُصَّ لنا شيئًا رأيته، فقال: قبل سبعين سنة جاء سيل كبير على المدينة، ونزل هذا السيل على مقابر شهداء أحد، وكان فيهم سيدنا حمزة رضي الله تعالى عنهن وسيدنا مصعب، والصحابة الكبار، وأربعة وسبعون شهيدًا يوم أحد... قال: فنزل السيل عليهم فأخذهم السيل فوجدناهم كما كانوا، كأنهم ماتوا الآن، فاستدعينا بعض العلماء الذين يعرفون أوصافهم فعرفوا سيدنا حمزة والصحابة الكبار، وأخذوهم ودفنوهم على حالتهم التي كانوا عليها قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، ولم يتغير منهم شيء، بل زادوا حلاوةً وإشراقًا.

ومن البينات أيضًا: أنه بين حرب النكسة ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، كان هناك دورية عسكرية تمر فأحد الجنود، فاستأذن من القائد وقال له: يا فندم اسمح لي أنزل أقضي حاجتي، فقال له: تفضل، فنزل العسكري لكي يتبول فغاب طويلًا لمدة نصف ساعة، فنزل القائد ورآه على حالته لا يعرف أن يتبول ولا يتبرز، فنادى عليه ونادى على زملائه، فقال لهم: احفروا هنا، فحفروا فوجدوا شهيدًا من حرب النكسة كأنه مات الآن! وكأن البول امتنع عن النزول على هذا المكان؛ لأن فيه شهيد من الشهداء! فهذه بينة.

ويمكن لي أن أذكر لك آلاف البينات حتى أصل معك إلى أن تكون على بينة، وتصل إلى المنزلة التي أمر الله بها: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي) [الأنعام: ٥٧]، لكن فيما ذكرتُ لك من الآيات والأحاديث والمواقف والعبر الكفاية، ونسأل الله أن يرزقنا هذه البينة.

اللهم اكتبنا وإياكم مع الصادقين، يا رب الأرباب، يا مسبب الأسباب، يا خالق آدم من تراب، يا مَن له الأمر كله، يا مَن له الجلال كله، يا مَن له العظمة كلها، نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى وبنور وجهك الكريم، اللهم أعنا ولا تُعن علينا، اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا.

اللهم أثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم اشرح للإيمان صدورنا، اللهم اعفُ عنا، واغسل أوزارنا، اللهم تب علينا، اللهم اكشف البلاء عنا، اللهم ارفع الداء عنا، يا رافع السماء، يا سامع الدعاء.

اللهم عجل لنا ولكم بالشفاء، مَن كان منا مريضًا فاشفه، مَن كان منا مهمومًا ففرِّجْ هَمَّه، مَن كان منا منكروبًا ففرج كربته، وأقل عثرته، يا الله يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام، نسألك قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيمًا، اللهم طهِّرْ قلوبنا، ونوِّرْ أفهامنا، اللهم شُد أزرنا، اللهم أملأ قلوبنا حبًّا لك، اللهم املأ قلوبنا خوفًا منك، اللهم لجعلنا خائفين منك، وجلين منك، نرجو رحمتك ونخشى عذابك.

يا الله، أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد.

يا الله، أنا الصغير الذي كبرته فلك الحمد.

يا الله، أنا الغافل الذي هديته فلك الحمد.

يا الله، أنا البعيد الذي قربته فلك الحمد.

يا الله، أنا الْمُعسِر الذي يسرت له فلك الحمد.

يا الله، يا ذا الجلال والإكرام، سترت علينا في الدنيا كثيرًا، فاستر علينا يوم القيامة...

ولي بقايا ذنوب لست أعلمها ** اللهُ يعلمها في السرِّ والعلن
ما أحلم الله عني حيث أمهلني ** وقد تماديت في ذنبي ويسترني.

اللهم إنك تعفو كثيرًا، وترحم كثيرًا، وتجود كثيرًا، وتتوب على العباد كثيرًا، فاللهم ما أنزلت على عبادك في هذ اليوم المبارك فاجعل لنا منه أوفر الحظ والنصيب يا الله، إنا فقراء إليك وإلى رحمتك وعفوك، يا مَن يعلم حالنا، ويرى مكاننا، ولا يخفى عليك شيء من أمرنا، هذا حالنا ظاهر بين يديك، وهذا ذُلُّنا لا يخفى عليك، أتعفو عنا؟ أترحمنا؟ أتتوب علينا؟ لا تردنا عن بابك صفر اليدين، فإنا متعلقون بأستار عفوك، فاعفُ عنا، واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم اهدِ أولادنا وبناتنا، اللهم افتح لهم أبواب كل خير، واقفل عنهم أبواب كل شر، يا الله اجعلنا محبين للقرآن، متعلقين بالقرآن، لا تردنا عن بابك صفر اليدين، يا الله لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة، لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، لا تعذب هذه القلوب المنفطرة الخائفة الوجلة، لا تعذب هذه الأعين الباكية، لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا إليك يوم القيامة ناظرة، اللهم اعفُ عنا جميعًا وعن المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

إلهي قد فعلت الذنب جهلًا، وعمري بالمعاصي قد تولى، إلهي لست للفردوس أهلًا، ولا أقوى على نار الجحيم، وقد واعدتنا ستر العيوب، فاغفر ذنوبنا، واغسل أوزارنا، وتقبل توبتنا؛ فإنك غافر الذنب العظيم، ومَن يغفر الذنوب إلا الله.

أسألك بنور وجهك العظيم أن تجعلنا في رفقة حبيبك، وأن تظلنا بنور عرشك الكريم، يا أكرم الأكرمين يا الله، يا رجاء السائلين يا الله، يا جليس الذاكرين يا الله، يا ناصر المستضعفين يا الله، هَوِّن علينا الصعاب، وخفف علينا الحساب، واسترنا يوم الميعاد، ولا تشمت بنا الأعداء، ولا تجعلنا مع القوم الظالمين، اللهم إننا دعوناك كمتا أمرتنا، دعوناك بضعفنا وذلنا وخوفنا وافتقارنا وانكسارنا وذلنا، فاغفر لنا بقوتك علينا، وبعظمتك علينا، وبجبروتك علينا، وهو القاهر فوق عباده، وهو يعلم السر وأخفى.

انظر إلينا، وباهِ بنا ملائكتك، وأَشهِدْ علينا ملائكتك، وقل لهم: يا ملائكتي إن عبادي جالسون في محبتي، أشهدكم يا ملائكتي إني قد عفوت عنهم.

رب اجعلني مقيم الصلاة ومِن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

استجيبوا لربكم

استجيبوا لربكم

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به نستهديه ونستغفره، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، اللهم لك الحمد كله، ومنك العون كله، ومنك الفتح كله، وإليك يرجع الأمر كله، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [النمل: ٩٣].

ونشهد ألا إله إلا الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، سيرته خير السير، وعطرته خير العطر، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد البشير النذير، السراج المنير، الصادق الوعد الأمين، وعلى الآل والصحب الغر الميامين.

قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) [النساء: ٦٥].

في هذا الدرس نتذوق حلاوة الإيمان، وحلاوة الرضا بالله، وحلاوة النصر من الله، قال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٨].

قل -أيها الرسول- لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته، وهو ما جاءهم من الله من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، فبذلك فليفرحوا؛ فإن الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة.

منك العون يا الله، ومنك النصر، ومنك التأييد، فهو الذي أيدك يا رسول الله بنصره وبالمؤمنين، وألَّفَ بين قلوبهم، قال تعالى: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال: ٦٣].

وجَمَع بين قلوبهم بعد التفرق، لو أنفقت مال الدنيا على جمع قلوبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولكن الله جمع بينها على الإيمان، فأصبحوا إخوانًا متحابين، إنه عزيز في مُلْكه، حكيم في أمره وتدبيره.

فاللهم أَلِّفْ بين قلوبنا على حبك، وعلى محبتك، وعلى مرضاتك، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ٦٤]. أي: يا أيها النبي إن الله كافيك، وكافي الذين معك من المؤمنين شرَّ أعدائكم.

هزني بل زلزلني رجل فاق الستين عامًا، وأتى إلَيَّ، وجلس وبكى، فسألته: ماذا يبكيك؟ فقال: أتمنى أن أحفظ القرآن، وانهمر في البكاء، وجعلني أبكي معه تأثرًا لحاله، فقد كان صادقًا مع الله، وقد كان عاش في حياته الدنيوية فترات عظيمة من المجد والارتفاع، وبعد هذا ترك الدنيا وراء ظهره، كما قال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨٣]. أي: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحق في الأرض ولا فسادًا فيها، والعاقبة المحمودة -وهي الجنة- لمن اتقى عذاب الله، وعمل الطاعات، وترك المحرمات.

وجدت فيه قلبًا رقيقًا صادقًا يريد أن يموت حافظًا لكتاب الله، ثم يقول: كلما أحفظ آية أو سورة فإني أنساها، والقرآن صعب عليَّ وشديد، وطلب أن أدعو الله تعالى أن ييسر عليه حفظ كتابه... فاللهم يسر عليه وعليكم ختم القرآن العظيم، وحب القرآن العظيم حتى نلقى الله تعالى ونحن من أهل القرآن العظيم.

قلت له: هل تستطيع أن تحفظ كل يوم آية؟ فمَن حفظ آية أو تعلم آية في يومه كأنما تصدق بناقة، كما في الحديث الشريف عن عقبة بن عامر، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة، فقال: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان، أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم، ولا قطع رحم؟" فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم -أو يقرأ- آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل".

بمعنى أنه تصدق بحوالي سبعة آلاف أو عشرة آلاف جنيه لله رب العالمين، بأن الله تعالى أعانك وفتح لك وحفظت آية من كتابه.

ثم سألته: هل تستطيع أن تزيد على الآية وأن تجعلها آيتين؟ فقال: نعم، قلت له: مَن حفظ آيتين أو تعلم آيتين فكأنما تصدق بناقتين.

فمن الإيمان أن يحفظ كل يوم آية أو آيتين؛ لكي لا يقال: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان: ٣٠]، لأنهم عندما هجروا القرآن هجروا كل شيء، وفي المقابل عندما أحبوا القرآن أحبوا كل شيء وأحبهم كل شيء.

فبايع الله تعالى جل جلاله تباركت أسماؤه أن تحفظ كل يوم ولو آية، فقد جاء رجل النبي العظيم صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله، إن القرآن صعب عليَّ، فلا أستطيع أن أحفظه، أو أن أكمل حفظه، فأراد النبي العظيم صلى الله عليه وسلم أن يفتح له بابًا من أبواب الخير، فبيَّن الله تعالى أن القرآن مُيَسّر، فقال الملك جل جلاله: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) [القمر: ١٧]. أي: ولقد سَهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر لِمَن أراد أن يتذكر ويعتبر، فهل مِن متعظ به؟

فالله تعالى يسره للحفظ أم يسره للذكر؟ فما دام قد يسره للذكر فقد يسره للحفظ؛ لأن الذكر مرتبة أعلى من الحفظ، قال الملك جل جلاله: (سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى) [الأعلى: ٦]. فإذا ما قرأت فإنك ستحفظ، وعندما تحفظ فلن تنسى بإذن الله إذا ما واظبت على مراجعة حفظك.

ولكي لا تنسي قل كما جاء في قوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) [طه: ١١٤]. أي: فتنزَّه الله سبحانه وارتفع، وتقدَّس عن كل نقص، الملك الذي قهر سلطانه كل ملك وجبار، المتصرف بكل شيء، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وكل شيء منه حق. ولا تعجل - أيها الرسول - بمسابقة جبريل في تَلَقِّي القرآن قبل أن يَفْرَغ منه، وقل: ربِّ زدني علمًا إلى ما علمتني. وسيزيدك الله علمًا.

ولكي لا تنسي قل: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) [طه: ٢٥]. أي: قال موسى: رب وسِّع لي صدري، وسيشرح لك الله تعالى صدرك.

فالقرآن سهل، لكن أين أنت من قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) [المزمل: ٥]؟

هل القرآن قول ثقيل أم قول سهل؟

الثقل هنا ليس في المعاني وليس في الألفاظ وليس في الفهم، وإنما هو ثقيل؛ لأنه كلام الله، قال تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر: ٢١]. أي: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، ففهم ما فيه مِن وعد ووعيد، لأبصَرْته على قوته وشدة صلابته وضخامته، خاضعًا ذليلا متشققًا من خشية الله تعالى. وتلك الأمثال نضربها، ونوضحها للناس ؛ لعلهم يتفكرون في قدرة الله وعظمته، وفي الآية حث على تدبر القرآن، وتفهم معانيه، والعمل به.

فيمكن أن يكون الشيء ثقيلًا، ولكن عندما تفتحه فإذا هو خفيف يسير سهل، فالقرآن الكريم لأنه من الله القوي إذا كانت قوة الله تعالى لا مثيل لها، وأن القوة لله، وأن الله تعالى أعطى بعض قوته لبعض خلقه فكذلك القرآن الكريم، قال تعالى: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) [النجم: ٥].

فإذا كان جبريل عليه السلام شديد القوى فكيف بقوة الله تعالى؟! فإن القوة في القرآن الكريم في جماله وفي عظمته، وفي أنه كلام الملك، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يقضي أمرًا في السماء فإن جميع مَن في السماء تأخذهم رعدة وخوف من أمره تعالى، فعن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كالسلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير"... الحديث.

فمَن في السماء تأخذهم رعدة وخوف من أمره تعالى، فيكون أول مَن يفيق هو جبريل عليه السلام، وبعد أن يفيق يكون هو الذي تلقى أمر الله تعالى، فهذا قوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) [القيامة: ١٨]. أي: فإذا قرأه عليك رسولنا جبريل فاستمِعْ لقراءته وأنصت له، ثم اقرأه كما أقرأك إياه.

فجبريل هو أول مَن يتلقى عن الله تعالى، وبعد هذا تفيق الملائكة، ويكون الأمر قد قضاه الله تعالى، كما قال الملك تعالى: (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [سبأ: ٢٣].

أي: ولا تنفع شفاعة الشافع عند الله تعالى إلا لمن أذن له. ومن عظمته وجلاله عز وجل أنه إذا تكلم سبحانه بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أُرعدوا من الهيبة، حتى يلحقهم مثل الغشي، فإذا زال الفزع عن قلوبهم سأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: قال الحق، وهو العليُّ بذاته وقهره وعلوِّ قدْره، الكبير على كل شيء.

فجميع الملائكة لا يتحملون الأمر عندما يُقضى في السماء، فهذا معنى قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) [المزمل: ٥].

أما كونه سهلًا ميسورًا فإن الطفل الصغير يتم حفظ كتاب الله عز وجل وهو ابن ست سنوات، إذن هل هو صعب أم سهل؟

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أتم حفظ القرآن الكريم كله قبل أن يكمل ست سنوات، وهو رحمه الله تعالى من مواليد أرض غزة في فلسطين أرض الشهداء، فاللهم ألحقنا وإياكم بالشهداء والصالحين، كما قال تعالى: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف: ١٠١].

ثم دعا يوسف ربه قائلًا: ربِّ قد أعطيتني من ملك "مصر"، وعلَّمتني من تفسير الرؤى وغير ذلك من العلم، يا خالق السماوات والأرض ومبدعهما، أنت متولي جميع شأني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، وألحقني بعبادك الصالحين من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

فلما أتى الرجلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلامه فقال له: يا رسول الله، إن القرآن صعب عليَّ، ولا أستطيع أن أجمعه، أو أن أحفظه، فأراد النبي العظيم صلى الله عليه وسلم أن يفتح له بابًا من أبواب الخير، فعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا، فعلمني ما يجزئني منه، قال: "قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"، قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل فما لي، قال: "قل: اللهم ارحمني وارزقني وعافني واهدني"، فلما قام قال: هكذا بيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فقد ملأ يده من الخير".

فَعَدَّ له المعلم العظيم على أصابع يده لكي لا ينسى، وملأ يده ذكرًا ودعاءً، فخرج الرجل فرحًا يكبر الله العظيم، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فقد ملأ يده من الخير".

الذي لا يستطيع أن يحفظ القرآن العظيم فإنه يستطيع أن يكون ذكارًا شكارًا، كما قال لك جل جلاله: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤]، أي: إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي، فاعبدني وحدي، وأقم الصلاة لتذكرني فيها.

لأن الله تعالى قال في كتابه الكريم: (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) [الشورى: ٤٧].

استجيبوا لربكم أيها الكافرون بالإيمان والطاعة من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا يمكن رده، ما لكم من ملجأ يومئذ ينجيكم من العذاب، ولا مكان يستركم، وتتنكرون فيه، وفي الآية دليل على ذَمِّ التسويف، وفيها الأمر بالمبادرة إلى كل عمل صالح يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات وموانع.

والإنسان عندما يستمع لكلمة "رب" تأخذه رهبة توحي لك بالرهبة، وسيدنا موسى عليه السلام لما أتى الفرعون قال له: إنا رسولا ربك، هو لا يعرف أن له ربًّا، كما قال تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) [طه: ٤٧]. أي: فاذهبا إليه وقولا له: إنا رسولان إليك من ربك أن أطلق بني إسرائيل، ولا تكلِّفهم ما لا يطيقون من الأعمال، قد أتيناك بدلالة معجزة من ربك تدل على صدقنا في دعوتنا، والسلامة من عذاب الله تعالى لمن اتبع هداه.

ثم دار بينها الحوار، فقال له موسى وهارون: (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: ٤٨-٥٠].

فسيدنا موسى وجَّهَُه إلى أن ينطق كلمة "رب"، ويزرع فيه التوحيد قهرًا عنه، ويجعله يقول اسم الرب، وهو الذي كان يزعم: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات: ٢٤].

ومن الخواطر حول هذا الموقف أن الله تعالى قال لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) [طه: ٤٤]. أي: فقولا له قولًا لطيفًا لعله يتذكر أو يخاف ربه.

وأحد الناس الصالحين يقول: إذا كان هذا هو الحال مع مَن يقول: أنا ربكم الأعلى، فكيف تكون رحمته تعالى مع من يقول: سبحان ربي الأعلى؟!

فالله تعالى يأمرهما بالتلطف مع الكافر، فكيف يكون لطف الله تعالى بك وأنت تقول: سبحان ربي الأعلى، فكلما تمر بك كلمة "رب" ستتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو السيد، وأن الله تعالى هو الذي يربينا، وأن الله تعالى هو الذي ألهم في البشر وفي المخلوقات لماذا خلقها، وإلى أي شيء يُصيرها، قال تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: ٥٠].

فالفرخ لكي يخرج من البيضة لا بد أن يكون له منقار، وإذا لم يكن له منقار فإنه لا يستطيع أن يخرج من البيضة، ولا أن تتم مرحلة الفقس، فأعطاه الله المنقار، وهداه الله تعالى متى ينقر القشرة لكي يخرج إلى الحياة، فمَن ألهمه هذا؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وعندما ينزل هذا الكتكوت فإنه ينزل إلى أمه لكي لا يرضع منها، بل إنه ينزل على الأرض، فمَن الذي علمه أن يلتقط الحب؟ إنه الله تعالى.

وهناك صور كثيرة لأجِنَّة في بطون أمهاتهم وهم يمسكون بالحبل السُّري، ويرفعون رؤوسهم شكرًا لك يا رب على نعمة الحياة، وصور أخرى لأجنة أخرى وهي راكعة، وصور أخرى لأجنة وهي ساجدة لأجنة، وصور أخرى لأجنة وهي متأملة في خلق العظيم الكريم الذي أمَّنَها وجعل لها سياجًا حاميًا، وأبعدها عن كل شيء، وحماها ووقاها وحفظها، فهي تقول: شكرًا يا حفيظ يا حافظ.

لذلك فالمسلم يلاحظ الأُلفة والمحبة التي بينك وبين الله في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) [مريم: ٩٦]. أي: إن الذين آمنوا بالله واتَّبَعوا رسله وعملوا الصالحات وَفْق شرعه، سيجعل لهم الرحمن محبة ومودة في قلوب عباده.

هذه الأمة العظيمة المحمدية لها وُدٌّ عند الله؛ لأنها دعت لقلوبها بألسنتها: يا رب أغث إخواننا في غزة، فأغثها الله بدعائكم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) [مريم: ٩٦]. فالمسلم يعرف متى يذكره ربه في الملأ الأعلى، قالوا: كيف؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني.

والطفل يتعلم كلمة الله؛ لأنها سهلة، فحرف (الراء) يخرج من طرف اللسان، وحرف (الباء) يخرج من مقدمة الشفتين، وأقرب شيء من الصوت مقدمة اللسان والشفتين، فهذه من أسهل الكلمات التي يتعلمها الطفل.

ومن ذلك ما جاء على لسان الفتية، فقال تعالى: (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) [الكهف: ١٤]. أي: وقوَّينا قلوبهم بالإيمان، وشددنا عزيمتهم به، حين قاموا بين يدي الملك الكافر، وهو يلومهم على تَرْكِ عبادة الأصنام فقالوا له: ربنا الذي نعبده هو رب السماوات والأرض، لن نعبد غيره من الآلهة، لو قلنا غير هذا لكُنَّا قد قلنا قولا جائرًا بعيدًا عن الحق.

فإذا لم تقل يا الله، وإذا لم تقل يا رب، فلست على الصراط المستقيم؛ لأن الله تعالى ناصرك في الأزمات، قال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران: ١٤٦]. أي: كثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لِمَا نزل بهم من جروح أو قتل؛ لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عَجَزوا، ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم، والله يحب الصابرين.

فكلمة الرب حبيبة إليك؛ لأن الله تعالى قريب إليك، وعلى قدر قربه إليك فإنه حَفِيّ بك، حنان بك، رحيم بك، قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق: ١٦]. ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تُحَدِّث به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (وهو عِرْق في العنق متصل بالقلب).

لأجل هذا فإن كلمة الرب فيها استجابة، فالذي يعرف قدر الله، والذي يعرف عظمة الله يعرف أن الفضل كله من الله، قال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) [الشورى: ١٥].

فإلى ذلك الدين القيِّم الذي شرعه الله للأنبياء ووصَّاهم به، فادع -أيها الرسول- عباد الله، واستقم كما أمرك الله، ولا تتبع أهواء الذين شكُّوا في الحق وانحرفوا عن الدين، وقل: صدَّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، وأمرني ربي أن أعدل بينكم في الحكم، الله ربنا وربكم، لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم بعدما تبين الحق، الله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كلًّا بما يستحق.

إن كلمة "الرب" وكلمة "ربنا" من الكلمات الحبيبة إلى قلب كل مسلم، والتي تأتي بها الإجابة بإذن الله تعالى عز وجل.

وفي خواتيم سورة البقرة دعا المؤمنون ربهم ثلاثًا، والثلاث دعوات بدأت بكلمة ربنا، قال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

صدَّق وأيقن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحي إليه من ربه وحُقَّ له أن يُوقن، والمؤمنون كذلك صدقوا وعملوا بالقرآن العظيم، كل منهم صدَّق بالله ربًّا وإلهًا متصفًا بصفات الجلال والكمال، وأن لله ملائكة كرامًا، وأنه أنزل كتبًا، وأرسل إلى خلقه رسلًا لا نؤمن -نحن المؤمنين- ببعضهم وننكر بعضهم، بل نؤمن بهم جميعًا، وقال الرسول والمؤمنون: سمعنا يا ربنا ما أوحيت به، وأطعنا في كل ذلك، نرجو أن تغفر بفضلك ذنوبنا، فأنت الذي ربَّيتنا بما أنعمت به علينا، وإليك وحدك مرجعنا ومصيرنا، دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب الله مِن عباده ما لا يطيقونه، فمن فعل خيرًا نال خيرًا، ومن فعل شرًّا نال شرًّا، ربنا لا تعاقبنا إن نسينا شيئًا مما افترضته علينا، أو أخطأنا في فِعْل شيء نهيتنا عن فعله، ربَّنا ولا تكلفنا من الأعمال الشاقة ما كلفته مَن قبلنا من العصاة عقوبة لهم، ربنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا نستطيعه من التكاليف والمصائب، وامْحُ ذنوبنا، واسترْ عيوبنا، وأحسن إلينا، أنت مالك أمرنا ومدبره، فانصرنا على مَن جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك، وكذَّبوا نبيك محمدًا صلى الله عليه وسلم، واجعل العاقبة لنا عليهم في الدنيا والآخرة.

آخر آيتين في سورة البقرة قال عنهما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن قرأ آخر آيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه"، فمَن أراد الكفاية والعون من الله عز وجل فإنه يدعو الله تعالى، ويستجير إلى الله تعالى بآخر آيتين في سورة البقرة، ولن تحتاج بعدهما إلى ساحر، ولا إلى دجَّال، ولا إلى قارئ فنجان أو كف، ولا إلى مَن يكتب حجابًا، ولا مَن يعلق تميمة ولا شيء أبدًا.

ومن فضلهما أن الله تعالى جعل فيهما كلمة ربنا ثلاثًا، فإذا دعوت الله فقلت: ربنا، ربنا، ربنا... فإن الرب العظيم يستجيب لك.

وأما خواتيم سورة آل عمران -وهي آخر عشر آيات- فإن هذه الآيات العشر قال عنها النبي العظيم صلى الله عليه وسلم: "ويل لِمَن قرآها ولم يتفكر فيها". وهي قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آلعمران: ١٩٠-٢٠٠].

وقد ورد عن عطاء أنه قال: قال دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أُمَّه كما قال الأول: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا (والمعنى: زر أقاربك على أوقات متقطعة حتى يشتاقوا إليك، ولا تزرهم بشكل مستمر فتثقل عليهم من الزيارة)، قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: "يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي"، قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة،

فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علَيَّ الليلة آية ويل لِمَن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}"... الآية كلها [آل عمران: ١٩٠].

هذه الآيات العشر التي حَذَّر النبي صلى الله عليه وسلم مِن عدم فهمها ينبغي أن نفهمها الآن، لماذا قلت هذا يا حبيب الله؟ لأن كلمة "ربنا" جاءت فيها خمس مرات، كما جاء بقوله تعالى: (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) [آل عمران: ١٩٤]، فيا ربنا أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من نصر وتمكين وتوفيق وهداية، ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، فإنك كريم لا تُخْلف وعدًا وَعَدْتَ به عبادك.

فبماذا وعد الله الرسل؟ وعدهم بالنصر والتأييد، كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ٦٤].

وفي آية أخرى قوله تعالى: (وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ٦٢].

فكلٌّ ما وعدت به الأنبياء من أول سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما أحوجنا إليه يا رب، فسيدنا يوسف عليه السلام كان محتاجًا إلى أن يُثبت، فإني أسألك يا رب أن تثبتني وتثبت شبابنا، كما ثَبت يوسف عليه السلام ثبت شباب أمة الإسلام، فسيدنا يوسف عليه السلام قال في لحظة صعبة جدًّا: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) [يوسف: ٣٣]. أي: قال يوسف مستعيذًا مِن شرهن ومكرهن: يا ربِّ السجنُ أحب إلى مما يدعونني إليه من عمل الفاحشة، وإن لم تدفع عني مكرهن أَمِلْ إليهن، وأكن من السفهاء الذين يرتكبون الإثم لجهلهم.

ولم يقل: فاستجاب له الله؛ لأن كلمة الله لها عظمة وقيومية خاصة، والآذان يبيدأ بكلمة الله، وينتهي بكلمة الله، لكن قال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [يوسف: ٣٤].

فاستجاب الله ليوسف دعاءه فصرف عنه ما أرادت منه امرأة العزيز وصواحباتها من معصية الله، إن الله هو السميع لدعاء يوسف، ودعاء كل داع مِن خلقه، العليم بمطلبه وحاجته وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم.

ولذلك فالله تعالى قال على لسان المؤمنين: (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) [آل عمران: ١٩٤]. أي: يا ربنا أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من نصر وتمكين وتوفيق وهداية، ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، فإنك كريم لا تُخْلف وعدًا وَعَدْتَ به عبادك.

ثم جاء الرجاء بعد أن قالوا ربنا خمس مرات، فقال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) [آل عمران: ١٩٥].

فأجاب الله دعاءهم بأنه لا يضيع جهد مَن عمل منهم عملا صالحًا ذكرًا كان أو أنثى، وهم في أُخُوَّة الدين وقَبول الأعمال والجزاء عليها سواء، فالذين هاجروا رغبةً في رضا الله تعالى، وأُخرجوا من ديارهم، وأوذوا في طاعة ربهم وعبادتهم إيّاه، وقاتلوا وقُتِلوا في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليسترنَّ الله عليهم ما ارتكبوه من المعاصي، كما سترها عليهم في الدنيا، فلا يحاسبهم عليها، وليدخلنَّهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار جزاء من عند الله، والله عنده حسن الثواب.

فأنت إذا أكثرت من الدعاء؛ فإن الرب العظيم يستجيب لك، لكن المطلوب منك الإلحاح في الدعاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة: "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم"، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: "(سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)" [القمر: ٤٥-٤٦].

فكان الفتح والنصر من الله تعالى بعد الدعاء، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الفتح: ٤].

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم "الحديبية" فسكنت، ورسخ اليقين فيها؛ ليزدادوا تصديقًا لله واتباعًا لرسوله مع تصديقهم واتباعهم. ولله سبحانه وتعالى جنود السماوات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين. وكان الله عليمًا بمصالح خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه.

فاستقر في قلوبهم الأمن فصاروا لا يتحركون إلا بسكينة من الله، ولا يصلُّون إلا بسكينة من الله، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: ٢٨]. أي: ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذكره وثوابه تسكن القلوب وتستأنس.

ثم جاء النصر من الله تعالى بعد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ) [الأنفال: ٩]. أي: اذكروا نعمة الله عليكم يوم "بدر" إذ تطلبون النصر على عدوكم، فاستجاب الله لدعائكم قائلًا: إني ممدُّكم بألف من الملائكة من السماء، يتبع بعضهم بعضًا.

وهناك أشياء أكبر من الدعاء، فهناك مناشدة، وهناك تضرع، وهناك استغاثة، فهل عندما استغاثوا به أغاثهم؟ نعم؛ فإنه تعالى قريب مجيب.

من أين يأتي المدد؟ من الله عز وجل ولكن لم يأتي المدد إلا بعد زلزلة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) [الأحزاب: ٩].

يا معشر المؤمنين اذكروا نعمة الله تعالى التي أنعمها عليكم في "المدينة" أيام غزوة الأحزاب -وهي غزوة الخندق-، حين اجتمع عليكم المشركون من خارج "المدينة"، واليهود والمنافقون من "المدينة" وما حولها، فأحاطوا بكم، فأرسلنا على الأحزاب ريحًا شديدة اقتلعت خيامهم ورمت قدورهم، وأرسلنا ملائكة من السماء لم تروها، فوقع الرعب في قلوبهم.

ثم بيَّن الله تعالى أنه الذي ينصر، وما جهدك إلا سبب فقط، فقال تعالى: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال: ١٧].

فلم تقتلوا -أيها المؤمنون- المشركين يوم "بدر"، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك، وما رميت حين رميت -أيها النبي- ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين؛ وليختبر المؤمنين بالله ورسوله ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرِّفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك. إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتم به وما أعلنتم، عليم بما فيه صلاح عباده.

وقال تعالى عن غزوة الأحزاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) [الأحزاب: ٩]، من أين جاءت هذه الجنود؟ إنها مدد من الله تعالى، ثم قال تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) [الأحزاب: ٩].

هذه المراتب لا بد أن تستمر معك، وهي: المناشدة والاستغاثة والدعاء والتضرع.

وبنو إسرائيل يقولون لسيدنا موسى كما جاء بقوله تعالى: (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) [الأعراف: ١٣٤]. أي: ولما نزل العذاب على فرعون وقومه فزعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما أوحى به إليك مِن رَفْع العذاب بالتوبة، لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه لنصدِّقنَّ بما جئت به، ونتبع ما دعوت إليه، ولنطلقنَّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا.

فربنا أعطاك عناية خاصة يا نبي الله موسى بما عهد عندك أنك إذا دعوت ربك فلن يخذلك.

وعندما ندعو، فمتى تأتي الاستجابة؟ بعد خمس مرات في سورة آل عمران، وبعد ثلاثة في سورة البقرة، وبعد مرة في سورة الأنبياء، كما جاء في قوله تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [الأنبياء: ٨٩]. أي: واذكر -أيها الرسول- قصة عبد الله زكريا حين دعا ربه أن يرزقه الذرية لما كَبِرت سنُّه قائلًا: ربِّ لا تتركني وحيدًا لا عقب لي، هَبْ لي وارثًا يقوم بأمر الدين في الناس مِن بعدي، وأنت خير الباقين، وخير مَن خلفني بخير.

قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: ٩٠]، أي: فاستجبنا له دعاءه ووهبنا له على الكبر ابنه يحيى، وجعلنا زوجته صالحة في أخلاقها وصالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عاقرًا، إنهم كانوا يبادرون إلى كل خير، ويدعوننا راغبين فيما عندنا، خائفين من عقوبتنا، وكانوا لنا خاضعين متواضعين.

فزكريا عليه السلام أراد الولد، لكن هل طلب صلاح الزوجة؟! وهل جاءت في الآية كلمة الزوجة؟ لا. ورغم هذا قال تعالى في الاستجابة لدعائه: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)، ومن الكرم: (وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى)، والمبالغة في الكرم: (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

وقال تعالى عن أيوب: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء: ٨٣]. أي: واذكر أيها الرسول عبدنا أيوب، إذ ابتليناه بضر وسقم عظيم في جسده، وفقد أهله وماله وولده، فصبر واحتسب، ونادى ربه عز وجل أني قد أصابني الضر، وأنت أرحم الراحمين، فاكشفه عني.

هل قال أيوب عليه السلام: اكشف عني الضر؟ هل طلب الشفاء؟ هل طلب العافية؟ ولكن باستعفاف ورِقَّةٍ قال: (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأنبياء: ٨٣].

لا يوجد ارحم منك يا رب، ولكنه لم يطلب طلبًا مباشرًا، لكنه طلب ووارى في الطلب، ورغم هذا لأنه أرحم الراحمين، (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) [الأنبياء: ٨٤].

فاستجبنا له دعاءه، ورفعنا عنه البلاء، ورددنا عليه ما فقده من أهل وولد ومال مضاعفًا، فَعَلْنا به ذلك رحمة منَّا، وليكون قدوة لكل صابر على البلاء، راجٍ رحمة ربه، عابد له.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) [الصافات: ٧٥]. أي: ولقد نادانا نبيُّنا نوح؛ لننصره على قومه، فلنعم المجيبون له نحن.

هل نادى نوح أم دعا؟ هل تعرف معنى "نادى"؟ هو ينادي وهو يعلم أن الله تعالى أقرب إليه من نفسه، ولكن معنى نادى يعني دعا كثيرًا، كما في قوله تعالى: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) [القمر: ١٠]. فهل قال الله له: انتظر قليلًا؟ لا، وإنما جاء الرد في الحال: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) [القمر: ١٠]. وقال تعالى: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) [الصافات: ٧٥]. فلا أحد أسرع في الإجابة من الله.

ومن ذلك ما ورد عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا شاب من الصحابة كان يُسمى ثعلبة بن عبد الرحمن، ويُلقب بالهارب من جهنم، كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء عن جابر بن عبد الله: أن فتى من الأنصار يقال له: ثعلبة بن عبد الرحمن أسلم، فكان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم بعثه في حاجة، فَمَرَّ بباب رجل من الأنصار فرأى امرأة الأنصاري تغتسل، فكرَّرَ النظر إليها، وخاف أن ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج هاربًا على وجهه، فأتى جبالًا بين مكة والمدينة فولجها، ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يومًا وهي الأيام التي قالوا: ودعه ربه وقلى، ثم إن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن الهارب من أمتك بين هذه الجبال يتعوذ بي من ناري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عمر ويا سلمان انطلقا فأتياني بثعلبة بن عبد الرحمن"، فخرجا في أنقاب المدينة فلقيهما راعٍ من رعاء المدينة يقال له: رفاقة، فقال له عمر: يا رفاقة، هل لك علم بشابٍ بين هذه الجبال؟ فقال له رفاقة: لعلك تريد الهارب من جهنم؟ فقال له عمر: وما علمك أنه هارب من جهنم؟ قال: لأنه إذا كان جوف الليل خرج علينا من هذه الجبال واضعًا يده على رأسه وهو يقول: يا ليتك قبضت روحي في الأرواح وجسدي في الأجساد ولم تجردني في فصل القضاء، قال عمر: إياه نريد. قال: فانطلق بهم رفاقة فلما كان في جوف الليل خرج عليهم من بين تلك الجبال واضعًا يده على أُمِّ رأسه وهو يقول: يا ليتك قبضت روحي في الأرواح وجسدي في الأجساد ولم تجردني لفصل القضاء، قال: فعدا عليه عمر فاحتضنه، فقال: الأمان الخلاص من النار.

فقال له عمر: أنا عمر بن الخطاب. فقال: يا عمر هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنبي؟ قال: لا علم لي إلا أنه ذكرك بالأمس، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلني أنا وسلمان في طلبك. فقال: يا عمر، لا تدخلني عليه إلا وهو يصلي، وبلال يقول: قد قامت الصلاة. قال: أفعل، فأقبلا به إلى المدينة، فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاة الغداة، فبدر عمر وسلمان الصف، فما سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خَرَّ مغشيًّا عليه، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا عمر ويا سلمان، ما فعل ثعلبة بن عبد الرحمن؟" قالا: هو ذا يا رسول الله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا فقال: "ثعلبة"، قال: لبيك يا رسول الله، فنظر إليه فقال: "ما غيبك عني؟" قال: ذنبي يا رسول الله، قال: "أفلا أدلك على آية تكفر الذنوب والخطايا؟" قال: بلى يا رسول الله، قال: "قل اللهم (آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [البقرة: ٢٠١]"، قال: ذنبي أعظم يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل كلام الله أعظم"، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصراف إلى منزله، فمرض ثمانية أيام، فجاء سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هل لك في ثعلبة نأتِهِ لِمَا به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قوموا بنا إليه"، فلما دخل عليه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فوضعه في حجره، فأزال رأسه عن حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لِمَ أزلت رأسك عن حجري؟" قال: إنه من الذنوب ملآن، قال: "ما تجد؟"، قال: أجد مثل دبيب النمل بين جلدي وعظمي، قال: "فمَا تشتهي؟" قال: مغفرة ربي، قال: فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: لو أن عبدي هذا لقيني بقراب الأرض خطيئة لقيته بقرابها مغفرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلمه ذلك؟" قال: بلى: فأعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك،

فصاح صيحة فمات، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسله وكفنه وصلَّى عليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على أطراف أنامله، فقالوا: يا رسول الله رأيناك تمشي على أطراف أناملك؟ قال: "والذي بعثني بالحق نبيًّا، ما قدرت أن أضع رجلي على الأرض من كثرة أجنحة مَن نزل لتشييعه من الملائكة" [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم (٩/ ٣٢٩)].

فهذا شاب قتله ذنب، وهو في هذه الحالة ينزل جبريل عليه السلام برسالة من الله الملك جل وعز إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبلغ ثعلبة أن الله تعالى يبشره أنه لو أتى بقراب الأرض خطايا لأتاه الله تعالى بمثلها مغفرة!

وسيدنا موسى عليه السلام قال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [القصص: ١٦]. أي: قال موسى: رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها فاغفر لي ذلك الذنب، فغفر الله له، إن الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

وسيدنا آدم عليه السلام وزوجه قالا: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف: ٢٣]. أي: قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن ممن أضاعوا حظَّهم في دنياهم وأخراهم.

فالذي يحميك من المعاصي رحمة الله، قال تعالى: (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) [الصافات: ٥٧]، أي: ولولا فضل ربي بهدايتي إلى الإيمان وتثبيتي عليه، لكنت من المحضرين في العذاب معك.

أحد الأشخاص ينظر يوم القيامة إلى النار فيرى الناس يُعذبون، فقال له: أنا أعرفك، أنت كنت ابن عمي، أو ابن خالتي، وكنت تحثني أن آتي معك ونفعل المعاصي وتعطلني عن الصلاة، قال تعالى: (قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ) [الصافات: ٥٦]، أي: قال المؤمن لقرينه المنكر للبعث: لقد قاربت أن تهلكني بصدك إياي عن الإيمان لو أطعتك، ولو استمعت كلامك لضيعتني، ثم جاء في الآية التي لحقتها قوله تعالى: (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) [الصافات: ٥٧]، لكنت في جهنم معك.

وقال تعالى في سورة النساء: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلًا * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا) [النساء: ٨٣-٨٤]. أي: ولولا أنْ تَفَضَّلَ الله عليكم ورحمكم لاتبعتم الشيطان ووساوسه إلا قليلا منكم، فجاهد -أيها النبي- في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا تلزم فعل غيرك ولا تؤاخذ به، وحُضَّ المؤمنين على القتال والجهاد، ورغِّبهم فيه، لعل الله يمنع بك وبهم بأس الكافرين وشدتهم. والله تعالى أشد قوة وأعظم عقوبة للكافرين.

والمسلم الذي يريد أن يعرف كيف يناجي ربه فليقرأ سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فسيدنا إبراهيم عنده عبودية عالية؛ ولذا قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء: ١٢٥].

لا أحد أحسن دينًا ممن انقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن، واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة. وقد اصطفى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، واتخذه صفيًّا من بين سائر خلقه. وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله -تعالى- وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

قال الله تعالى عن خليله ومصطفاه إبراهيم عليه السلام: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) [إبراهيم: ٣٧]، أي: ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ ليس فيه زرع ولا ماء بجوار بيتك المحرم، ربنا إنني فعلت ذلك بأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة بحدودها، فاجعل قلوب بعض خلقك تَنزع إليهم وتحنُّ، وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار؛ لكي يشكروا لك على عظيم نعمك، فاستجاب الله دعاءه.

مَن الذي يستطيع أن يترك زوجته وولده في مكان قَفْر لا زرع فيه ولا ماء، إلا أن يكون رجلًا عنده يقين عظيم بالله مثل سيدنا إبراهيم.

ثم يقول تعالى عن إبراهيم: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [إبراهيم: ٤١].

فحرف (الراء) حرف سهل يخرج من طرف اللسان، وهو من أكثر الكلمات تكرارًا في القرآن الكريم، وكذلك كلمة (الله) فهما أكثر الكلمات تكرارًا؛ لذلك فالمسلم يحرص دائمًا على تكرار هاتين الكلمتين كما ورد عن أنبياء الله تعالى، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فاللهم إنا نسألك الإخلاص في القول وفي العمل، ونسألك الصدق في القول والعمل، ونسألك أن تجمع الأمة كلها على أبواب النصر والتأييد، اللهم أدِم نصرك علينا، وأدِم فتحك علينا، وأدِم عونك لنا، (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٥٦]. (وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: ٥٦].

فاللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا وباسمك الأعظم يا قاضي الحاجات، يا سامع الدعوات، يا كاشف الكربات، يا أسمع السامعين، يا أبصر الباصرين، يا الله يا كريم، يا الله يا عظيم، يا سامع الدعاء، يا قابل الرجاء، يا رافع السماء، نسألك بنور وجهك الكريم أن تثبت الإيمان في قلوبنا، لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وَهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم حَبِّب إلينا الإيمان، وزَيِّنْه في قلوبنا، اللهم املأ قلوبنا حبًّا لك، وخوفًا منك، وسعيًا إلى مرضاتك، اللهم اجعلنا من الخائفين منك، من الراجين عفوك، من المقبلين إليك، من النادمين على ما فاتهم من حسنات.

قال تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الزمر: ١٣]، فاللهم اجعلنا ممن يخرجون إلى أحبابهم يوم القيامة وهم يقولون: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [الحاقة: ١٩-٢٤].

اللهم اجعلنا ممن يقال لهم يوم القيامة: (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) [الإنسان: ٢١-٢٢].

اللهم هَوِّنْ علينا قبل الممات، وهَوِّن علينا عند الممات، وهَوِّن علينا بعد الممات، نسألك بعزك وذلنا، نسألك بغناك وفقرنا، نسألك بقوتك وضعفنا، نسألك بعلمنا وجهلنا، لا تخذنا يوم القيامة، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخذنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، لا تخزنا (يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التحريم: ٨].

نسألك باسمك العظيم، نسألك باسمك الحليم، نسألك باسمك التواب، نسألك يا ربنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيمًا، اللهم لا تحرمنا عفوك، وأدم علينا نصرك.

مَن للإسلام غيرك يا الله، مَن للإيمان غيرك يا الله، مَن للمسلمين المستضعفين غيرك يا الله، وإن الله على نصرهم لقدير، يا مالك الملك، يا الله، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، يا مَن هو في علمه قريب، يا مَن هو في قربه عظيم، يا مَن هو في عظمته كريم، يا أكرم الأكرمين اعفُ عنا، وأغفر لنا، وارحمنا.

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، (إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

الحافظون لحدود الله

الحافظون لحدود الله

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليك يا ربنا بما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، اللهم لك الحمد كله، ومنك العون كله، ومنك الفضل كله، وإليك يرجع الأمر كله، وأُمِرنا لنسلم لرب العالمين.

اللهم اجعلنا مسلمين لك حقًّا، مسلمين لك صدقًا، اللهم اجعلنا مُقبلين غير مدبرين، مرحومين غير محرومين، اللهم ثبتنا بالإيمان، ونوِّرْ أفهامنا بحبِّ القرآن، اللهم علمنا علمًا ينفعنا، وانفعنا يا ربنا بما علمتنا.

اللهم إنا نشهد لك أنك أنت الواحد الفرد الصمد، نشهد لك أنك رب الوجود، وخالق كل معبود، سبحانك لا إله إلا أنت يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، يا رحمن يا رحيم، يا أرحم الراحمين.

قال تعالى: (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) [مريم: ٩٣-٩٤].

وقال تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) [الأنبياء: ٩٨].

الله تعالى هو المتفضل بالجمال والمتفضل بالكمال، ورب الزمان ورب المكان، ولكنهم عبدوا مخلوقات من دون الله تعالى، وما عبدوه من دون الله فقد افتروا على الله بما خلق الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، قال تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل: ٦١]. أي: أعبادة ما تشركون بربكم خير أم الذي جعل لكم الأرض مستقرًّا، وجعل وسطها أنهارًا، وجعل لها الجبال ثوابت، وجعل بين البحرين العذب والملح حاجزًا حتى لا يُفسد أحدهما الآخر؟ أمعبود مع الله فَعَلَ ذلك حتى تشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْر عظمة الله، فهم يشركون به تقليدًا وظلمًا.

فإلاهكم إله واحد فله أسلموا بقلوبكم، وسلِّمُوا لله أنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وسلموا لله أن الأمور كلها بيده، لا يتقدم شيء إلا بمشيئته، ولا يتأخر شيء إلا بإرادته، تبارك مَن في السماء عرشه، تبارك من في الأرض سلطانه، تبارك من في البحار عظمته، تبارك من في الحياة مشيئته، تبارك من في الممات إرادته.

قال تعالى عن ذاته: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء: ٢٣]، أي: إن من دلائل تفرُّده سبحانه بالخلق والعبادة أنه لا يُسأل عن قضائه في خلقه، وجميع خلقه يُسألون عن أفعالهم.

نشهد ألا إله إلا الله، الملك الحق المبين، ونشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، الصادق الوعد الأمين، اللهم صلِّ أفضل صلاة وأزكى سلام على خير نبي مبعوث إلى خير أمة، وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

اللهم ارزقنا حب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومتابعة سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعمل بما علمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم ارزقنا حب سنته، وحب سيرته صلى الله عليه وسلم، وحب هديه وهدايته.

قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) [النساء: ٦٥]. فقد أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سنتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًّا، فالحكم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم.

الحافظون لحدود الله هو موضوع هذا الدرس، فاللهم ثبتنا واقبلنا، اللهم ثبتنا وعلمنا، اللهم ثبتنا وفهمنا، اللهم ثبتنا وقوِّنا، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. إلى كل مسلم أقول: ينبغي أن تشتري نفسك! وتقول: كيف أشتري نفسي؟ وكيف أحافظ على قلبي؟ تشتري نفسك ممن؟ وتبيعها لمن؟ هذا هو المعنى الذي ندور حوله في فهم حدود الله.

فالله تعالى جلَّ جلاله حَدَّ حدودًا لنا، وقال لكم: يا أمة الإسلام، ويا أمة محمد خير الأنام، تلك حدود الله... فعندما تسمع لفظ (الله) فإنه يعطيك مهابة؛ كما في قوله تعالى: (يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر، ١٦]، أي: يوم القيامة تظهر الخلائق أمام ربهم، لا يخفى على الله منهم ولا مِن أعمالهم التي عملوها في الدنيا شيء، يقول الله سبحانه: لمن الملك والتصرف في هذا اليوم؟ فيجيب نفسه: لله المتفرد بأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّار الذي قهر جميع الخلائق بقدرته وعزته.

فكلٌ شيء في القرآن العظيم يضاف إلى الله يحدث في النفس رهبة وزلزلة ثم حبًّا، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: ٢٨]، أي: ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذِكرِهِ وثوابه تسكن القلوب وتستأنس.

فالذِّكر يُحدث في قلبك زلزلة، وبعد هذه الزلزلة تأتي الطمأنينة، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال: ٢]. أي: إنما المؤمنون بالله حقًّا هم الذين إذا ذُكِر الله فزعت قلوبهم، وإذا تُلِيَت عليهم آيات القرآن زادتهم إيمانًا مع إيمانهم، لتدبرهم لمعانيه وعلى الله تعالى يتوكلون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه.

فاللهم زدنا وإياكم إيمانًا ونورًا وحبًّا لله وحبًّا لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتريد أن تشتري نفسك؟ ومَن الذي سيشتري منك نفسك؟ ومَن الذي يبيع؟ الذي يبيع هو أنت، والذي يشتري هو الله، فأن تبيع نفسك لله هذه مسألة صعبة عليك في البداية؛ لأنها مرتبة عالية، قال تعالى جل جلاله: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) [البقرة: ٢٠٧]. أي: وبعض الناس يبيع نفسه طلبًا لرضا الله عنه، بالجهاد في سبيله، والتزام طاعته. والله رءوف بالعباد، يرحم عباده المؤمنين رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم، فيجازيهم أحسن الجزاء.

نزلت هذه الآية في سيدنا صهيب الرومي رضي الله عنه عندما ترك مكة مهاجرًا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأرادوا أن يأخذوا منه كل شيء من مال وعقارات وأملاك، فقال: لا حرج خذوا كل شيء؛ لأن الإنسان لا يملك من نفسه شيئًا، إنما أمره كله لله، خذوا مالي، وخذوا مجوهراتي، وخذوا بيتي وما تشاؤون، أما أنا فلا أرجو إلا الرب العظيم سبحانه وتعالى.

فالذي باع نفسه هل هو رابح أم خاسر؟ لا شك أنه رابح، لماذا هو رابح؟ لأنه باع نفسه لقيوم السماوات والأرض، هل رأيت أحدًا يتاجر مع كريم ويخسر؟ هل رأيت أحدًا يتاجر مع أكرم الأكرمين ويخسر؟ حاشاك يا الله، قال تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر: ٢١]، أي: وما من شيء من منافع العباد إلا عندنا خزائنه من جميع الصنوف، وما ننزله إلا بمقدار محدد كما نشاء وكما نريد، فالخزائن بيد الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب رحمته الواسعة، وحكمته البالغة.

كلمة (عندنا) يقصد بها عند الملك سبحانه، لذلك ورد عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُرِيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة، فإما أن يكون هجر، أو يكون يثرب". ثم قال رضي الله عنه: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه، وكنت قد هممت بالخروج معه، وصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكيًا فناموا فخرجت، فلحقني منهم ناس بعدما سرت يريدون ردي، فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وسِيَرًا لي بمكة، وتخلون سبيلي، وتوثقون لي. ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب، فإن تحتها الأواقي، فاذهبوا إلى فلانة بآية كذا وكذا، فخذوا الحليتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: "يا أبا يحيى، ربح البيع" ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل صلى الله عليه وسلم.

لقد ربح البيع يا أبا يحيى، هكذا بشره النبي صلى الله عليه وسلم، فهل تريد أن تربح، وهل تريدين أن تربحين كما ربح صهيب أبو يحيي رضي الله تعالى عنه؟ كلنا يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، كما قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) [البقرة: ٢٠٧]

فما رأيك أن الله تعالى اشترى هذه الأمة كلها؟! فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١١١]، أي: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم في مقابل ذلك الجنة، وما أعد الله فيها من النعيم لبذلهم نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه، فيَقْتلون ويُقتَلون، وعدًا عليه حقًّا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أحد أوفى بعهده من الله لمن وفَّى بما عاهد الله عليه، فأظهروا السرور-أيها المؤمنون- ببيعكم الذي بايعتم الله به، وبما وعدكم به من الجنة والرضوان، وذلك البيع هو الفلاح العظيم. فاللهم اجعلنا من المؤمنين حقًّا، ومن المؤمنين صدقًا.

فاتعب أيها المسلم في الحياة، وكافح في الحياة، وتحمل مصائب الحياة، وامرض في هذه الحياة، ولكن في النهاية لك الجنة، كما قيل:

مَن يشتري الدار الفردوس يعمرها * بركعة في ظلام الليل يحييها

فقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: ١١١]، الذي يبيع هو أنت، والذي يشتري منك هو الله، فهل أنت صادق في بيعتك مع الله؟ (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ) [التوبة: ١١١]؛ لأجل هذا الجنة سلعة غالية بناها الرحمن بيده، وأعدَّها لعباده المتقين، قال تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) [مريم: ٦٣]. أي: تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات، هي التي نورثها ونعطيها عبادنا المتقين لنا، بامتثال أوامرنا واجتناب نواهينا. فاللهم اجعلنا أتقياء، واجعلنا أنقياء.

قال تعالى: (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) [التوبة: ١١١]، لأنه يجود بنفسه، ويتمنى أن يموت شهيدًا، فهذه الدماء التي تنزل منه فداء لدين الله عز وجل فالله سبحانه وتعالى يشتري منك نفسك بالجهاد، ويشتري منك نفسك بالصدق معه، ويشتري منك نفسك بكثرة الصيام، ويشتري منك نفسك بكثرة ذِكرِ الله عز وجل.

هذا الكلام هو وعد من الله تعالى، والله تعالى سبحانه لا يخلف الميعاد، (وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ)؛ لأنك تعاهد الله على هذا، إذن لا بد أن يكون هناك عهد وميثاق بينك وبين الله تعالى، لو كان هناك عهد وبيعة بينك وبين الله تعالى إذن أنت ألزمت نفسك بحدود معينة، فيقول أحدهم: إذا لم أصلِّ الفجر اليوم في جماعة فسأستغفر خمسة آلاف مرة، فتُلزم نفسك، وإذا لم أفعل اليوم كذا فسأعاقب نفسي بكذا، وإذا لم أقم الليلة فإنني أعاقب نفسي بكذا، فهذه بيعتك مع الله.

كيف أشتري نفسي؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك، وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمدًا عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار، فمن قالها مرتين أعتق الله نصفه، ومن قالها ثلاثًا أعتق الله ثلاثة أرباعه، فإن قالها أربعًا أعتقه الله من النار".

إذن أنا أشتري نفسي هذا هو المعنى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: ١١١]، فأنت الآن تقول: ليس هناك جهاد في سبيل الله، وليس هناك حروب هذه الأيام، فكيف أشتري نفسي؟ وكيف أتاجر مع الله؟

يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مَن قالها مرة في الصباح أعتق الله ربعه من النار، والذي يقولها مرتين فقد أعتق الله تعالى نصفه من النار، ومَن قالها ثلاثة فقد أعتق الله تعالى ثلاثة أرباعه من النار، والذي يقولها أربعة فقد أعتقه الله تعالى من النار.

فهل صعب أن تشتري نفسك وتقولها في الصباح والمساء أربع مرات؟ معنى هذا أنك اشتريت نفسك وبايعت الله تعالى وأعتقت رقبتك من النار مرة في الصباح ومرة في المساء، هذا كلام النبي العظيم، فاللهم صلِّ وسلمْ وباركْ عليه وعلى آله وصحبه.

والمسلم لو أراد أن يختم الصلاة، ويقول ثلاثًا وثلاثين: سبحان الله، ومثلها الحمد لله، ومثلها الله أكبر، فإنه يحتاج إلى مجاهدة طويلة، وبعض الناس مجرد أن يسلِّم من الصلاة فإنه يتجه مباشرة إلى حذائه، كأنه كان يُصلي وقلبه معلق بحذائه!

ما رأيك أن سيدنا آدم عليه السلام اشترى نفسه كما جاء في قوله تعالى: (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه: ١٢١]، أي: فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورةً عن أعينهما، فأخذا ينزعان من ورق أشجار الجنة ويلصقانه عليهما؛ ليسترا ما انكشف من عوراتهما، وخالف آدم أمر ربه، فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها.

وبعد أن عصى يريد أن يتوب، ولكي يتوب ينبغي أن يشتري نفسه من الله تعالى، فكيف يشتري آدم عليه السلام نفسه من النار؟ انظر مفاجأة قرآنية جميلة، سيدنا آدم اشترى نفسه بآية، قال تعالى: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف: ٢٣]، أي: قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن ممن أضاعوا حظَّهم في دنياهم وأخراهم.

فقد اشترا نفسيهما من الله بالاعتذار، فقد اعتذرا لقيوم السماوات والأرض لم يتكبرا، ولم يغترا، ولكن آدم ذلَّ نفسه لقيوم السماوات والأرض، وهذه مرتبة جميلة جدًّا، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [المائدة: ٥٤]، أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه من يرجع منكم عن دينه، ويستبدل به اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك، فلن يضرُّوا الله شيئًا، وسوف يأتي الله بقوم خير منهم يُحِبُّهم ويحبونه، رحماء بالمؤمنين أشدَّاء على الكافرين، يجاهدون أعداء الله، ولا يخافون في ذات الله أحدًا. ذلك الإنعام مِن فضل الله يؤتيه من أراد، والله واسع الفضل، عليم بمن يستحقه من عباده.

فاللهم اجعلنا أذلة على المؤمنين نخفض جناحنا وأجنحتنا للمؤمنين.

كيف تشتري نفسك يا آدم عليك السلام؟ وقد انكشفت سوءته وظهرت عورته، كما جاء في قوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ٢٧]. أي: يا بني آدم لا يخدعنَّكم الشيطان، فيزين لكم المعصية، كما زيَّنها لأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما بسببها من الجنة، ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتنكشف لهما عوراتهما، إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأنتم لا ترونهم فاحذروهم، إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

سيدنا آدم انكشفت سوأته، وانكشفت عورته، وهو يريد أن يسترد لباسه وعافيته، ويريد أن يسترد غطاءه مرة ثانية، فكيف تشتري نفسك يا آدم عليك السلام من الله؟ إنه فعل ذلك بالاعتذار، إذن المسلم يشتري نفسه بعدة أمور، هي:

الأول: الاعتذار.

الثاني: الاستغفار.

الثالث: صلة الأرحام.

الرابع: كثرة السلام.

الخامس: الصلاة بالليل والناس نيام.

وهكذا كل واحد فينا يبحث عن باب يشتري به نفسه، وباب سيدنا آدم باب معلوم، وهو الذي ذكره الله رب العالمين، قال تعالى: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف: ٢٣]، فلما اعتذر إلى الله رب العالمين وجد الله تعالى فيه قلبًا نقيًّا، ولسانًا ذكارًا، ونفسًا مطمئنة إلى الله، فتاب الله على آدم عليه السلام؛ ولذا قال تعالى: (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ) [التوبة: ١١١].

فالمسلم إذا فعل معصية عاد واستغفر، وثقل إيمانه، وزاد يقينه بالله رب العالمين؟ فهذه هي البيعة مع الله، قال تعالى: (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١١١]. فاللهم واجعلنا وإياكم مع الفائزين.

هل تريد أن تفوز بالجنة؟ الإجابة بالتأكيد: نعم، فعليك أن تصدق في عهدك مع الله تعالى؛ ولذا ورد عن شداد بن أوس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم: "سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك مِن شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عَلَيَّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"، قال: "ومَن قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومَن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة". فكان النبي العظيم صلى الله عليه وسلم يقول: وإني على عهدك ووعدك ما استطعت. فالتائبون العابدون هم الفائزون، فاختر لك منزلة.

فنحن نبحث عن الفائزين، نبحث عن عَتَّاقَة من النار، فربنا يعرض عليك مراتب الإيمان، فأين أنت؟ وأين مكانك؟ وأين منزلتك؟ هل أنت مع التائبين؟ وهل أنت مع العابدين؟ وهل أنت من الحامدين؟ أسأل نفسك مع كل مرتبة من هذه المراتب، فاللهم اجعلنا وإياكم من الحامدين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، قال تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: ١١٢]، أي: ومن صفات هؤلاء المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم التائبون الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، الذين أخلصوا العبادة لله وحده وجدوا في طاعته، الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير أو شر، الصائمون، الراكعون في صلاتهم، الساجدون فيها، الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله ورسوله به، وينهونهم عن كل ما نهى الله عنه ورسوله، المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه، القائمون على طاعته، الواقفون عند حدوده. وبشِّر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته.

عندما تستمع لشخص يسب الدين، ماذا تفعل؟ هل تنتفض؟ وهل تتأثر؟ أم تقول: لا يهمني هذا الأمر؟ وعندما ترى أحدًا يضرب أمه أو أباه، أو يعتدي على الجامع، فهل تحافظ على حدود الله تعالى؟ وعندما ترى سفيهًا يهاجم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحاب النبي رضي الله عنهم، فهل ترضى بهذا، وتوافق على هذا الكفر الواضح البيِّن؟ وعندما ترى مَن يتهكمون على كتاب الله ويطلقون النكات والنوادر على المشايخ وعلى المصلين، فهل ترضى بهذا؟ وعندما ترى ابنك مستغرقًا في المعاصي، أو ترى ابنتك متبرجة وأنت لم توجه ولم تنصح ولم تأمر بالمعروف ولم تنهَ عن المنكر، فهل أنت حافظ لحدود الله؟!

إني الآن عرضت عليك المراتب التي ينبغي أن تختار منها منزلة، فأين منزلتك عند الله؟ وماذا كُتِبت عند الله؟ فاختار لك منزلة من هذه المنازل وتشبث بها حتى تلقى الله، قال تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر: ٩٩]، أي: واستمِرَّ في عبادة ربك مدة حياتك حتى يأتيك اليقين، وهو الموت. وامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فلم يزل دائبًا في عبادة الله، حتى أتاه اليقين من ربه.

لو قيل لك: ستُطبق الشريعة الإسلامية غدًا، وستُقام الحدود في بلادنا أمام الناس جميعًا، وسنحافظ على حدود الله، وسنحافظ على مجتمعاتنا الإسلامية من المخدرات ومن الزنا ومن القتل ومن السرقة، فمَا رَدُّ فعلك؟ هل أنت مستريح؟ أم تقول: هذه أمور صعبة على الناس، ومن الصعب أن يتقبلوها؟ وهل أنت تحب حدود الله، أم أنك تريد أحكام الجاهلية؟ فقال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة: ٥٠].

أي: أيريد هؤلاء اليهود أن تحكم بينهم بما تعارف عليه المشركون عبدةُ الأوثان من الضلالات والجهالات؟! لا يكون ذلك ولا يليق أبدًا، ومَن أعدل مِن الله في حكمه لمن عقل عن الله شَرْعه، وآمن به، وأيقن أن حكم الله هو الحق؟

فاللهم اجعلنا من التائبين يا رب؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن الذي يتوب هو الذي يذنب ذنبًا معينًا ثم يتوب من الذنب، وهذا غير صحيح، فكلٌّ مسلم لا بد أن يتوب ويستغفر بضع مئات المرات، وإذا لم يفعل فإنه ظالم لنفسه، هذا كلام الله عز وجل كما جاء بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٍ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الحجرات: ١١].

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشريعته لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين؛ عسى أن يكون المهزوء به منهم خيرًا من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات؛ عسى أن يكون المهزوء به منهنَّ خيرًا من الهازئات، ولا يَعِبْ بعضكم بعضًا، ولا يَدْعُ بعضكم بعضًا بما يكره من الألقاب، بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، ومن لم يتب من هذه السخرية واللمز والتنابز والفسوق فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

فلا بد أن تدخل في منزلة العابدين، إنها صفة جميلة، فالشيء الذي عُبِّد يعني صار مستقيمًا، وصار ذليلًا، وصار خاضعًا، وما أجمل أن تكون خاضعًا لله رب العالمين، فقد قال النبي العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه: "وجعلت قُرة عيني في الصلاة".

فابحث عن منزلة لك: هل أنت مع التائبين؟ أم مع العابدين؟ أم مع الحامدين؟ أم مع الراكعين؟ أم مع الساجدين؟ أم مع الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟ وأين أنت من هذه المنازل؟ لو بلغتها جميعًا وصلت إلى أرقى المنازل، هل تعرف ما هي؟ قال تعالى: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) [التوبة: ١١٢].

يُقال لك: فلان مُحافظ، وفلان مستقيم، وفلان ملتزم، وفلان متدين... إلخ، فصفة العبودية هي أفضل صفة يمكن أن يوصف بها إنسان على وجه الأرض، وأنت تدخل في "نعم العبد"، وأن يذكرك الله تعالى في الملأ الأعلا، كما قال تعالى: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) [التوبة: ١١٢].

إذا سمعت أحدًا يهتك عرض أخيك المسلم أو أختك المسلمة وأنت تعرف أنه بريء أو أنها بريئة فيجب أن تذُب عن عرض أخيك وتدافع عن عرضه؛ لأن عرض أخيك حد لإيمانك أنت، قال تعالى: (ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم: ٤١].

ما الذي يجعل الفساد لا ينتشر؟ حدود الله، أول ناس روَّجُوا للمعاصي لو أُقِيم عليهم الحد في نفس المكان الذي روجوا فيه المعاصي ما كان لهم أن يفعلوها أبدًا، ولكنك أحيانًا ترى الباطل عاريًا، فأحد المجرمين يقتل في النهار والناس كلها تراه، ويأخذ براءة! ويسرق في النهار أموال الناس ولا يعاقبه أحد! ويتاجر في أعراض الناس ولا يعاقبه أحد! هذا يؤدي إلى الفساد؛ لذلك فإن الله تعالى قال في كتابه الكريم: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام: ١٥٣].

ومما وصاكم الله به أن هذا الإسلام هو طريق الله تعالى المستقيم فاسلكوه، ولا تسلكوا سبل الضلال، فتفرقكم، وتبعدكم عن سبيل الله المستقيم، ذلكم التوجه نحو الطريق المستقيم هو الذي وصَّاكم الله به؛ لتتقوا عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

فالذي رسم الصراط هو الله؛ لذلك قال تعالى يوضح أن لها طريقًا موصلًا إليه: (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) [الأنعام: ١٥٣].

والناس يعتقدون أن الحدود فقط هي الحدود الشرعية كالقطع أو الرجم أو كذا، نقول: هناك حدود أخرى نحن نغفل عنها كثيرًا، إذا رأيت المعاصي في بيتك وسكَتَّ على هذه المعاصي فلا تلوم ابنك ولا ابنتك بعد هذا إذا انفلت منك؛ لأنك ما أخذت على يده، ولأنك ما منعته، ولأنك ما خوَّفْتَه من الله تعالى عز وجل، فالآذان لصلاة الظهر هذا حد من حدود الله، وهو يقيم الحُجة على من سمعه، فهذا حد من حدود الله، فصار واجبًا عليك أن تترك ما في يديك وتقوم للصلاة، قال تعالى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) [التوبة: ١١١].

فاللهم ارزقنا وإياكم حسن الخواتيم، اللهم اختم لنا ولكم بخير، واجعل عملنا كله خالصًا لك، اللهم اجعلنا من الحافظين لحدود الله؛ ولذا ورد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها".

(فكل الناس يغدو)، بمعنى أنهم في الصباح الكل يخرج لعمله، لكن الناس سينقسمون إلى قسمين، (كل الناس يغدون فبايع نفسه)، فهناك شخص يبيعها لله، ويقول: أبايع نفسي في هذا اليوم أني لا أكذب، ولا أقول زورًا، ولا أنظر إلى امرأة، ولا أفعل كذا أو كذا، وآخر يبيع دينه من أجل نصف جنيه، ويحلف على المصحف ألف مرة من أجل ربع جنيه؛ ولذا قال النبي العظيم صلى الله عليه وعلى آله: "كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها". فالإنسان ينجو بكلمة واحدة، ويضيع بكلمة واحدة؛ لذلك فإن الله تعالى قال: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ) [آل عمران: ٣٠]، أي: وفي يوم القيامة بوم الجزاء تجد كل نفس ما عملت من خير ينتظرها موفرًا لتُجزَى به، وما عملت من عمل سيِّئ تجده في انتظارها أيضًا، فتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل زمنًا بعيدًا. فاستعدوا لهذا اليوم، وخافوا بطش الإله الجبار. ومع شدَّة عقابه فإنه سبحانه رءوف بالعباد.

هذا الكلام للذين يريدون أن يعتقوا أنفسهم، قال تعالى: (لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ) [آل عمران: ٢٨].

ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومَن يتولهم فقد برئ من الله، والله برِيء منه، إلا أن تكونوا ضعافًا خائفين فقد رخَّص الله لكم في مهادنتهم اتقاء لشرهم، حتى تقوى شوكتكم، ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه. وإلى الله وحده رجوع الخلائق للحساب والجزاء.

فالمسلم حريص على التجارة مع الله، كما ورد عن أنس رضي الله عنه: أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فأمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أعطها إياه بنخلة في الجنة"، فأبى، فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي. ففعل، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعت النخلة بحائطي. قال: فاجعلها له، فقد أعطيتكها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة"، قالها مرارًا. قال: فأتى -أبو الدحداح- امرأته فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط، فإني قد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع... أو كلمة تشبهها.

وأيضًا المسلم حريص على مراقبة الله في السر والعلن، والرجاء فيما عند الله، وهو حريص كل الحرص على التزام حدود الله، كما قال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٧]. وقال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [النساء: ١٣-١٤].

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين، وغياث المستغيثين، ومجيب دعوة المضطرين، عِزَّ كل ذليل، وغنى كل فقير، ومفزع كل ملهوف، والصلاة والسلام على خير من ذكر الله، وسبح الله، وكبر الله، واستغفر الله، وسعى بين يدي الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

اللهم اجعلنا من المقبولين، واجعلنا من المسبحين، واجعلنا من المكرمين، اللهم اجعلنا في يومنا هذا وفي شهرنا هذا وفي ساعتنا هذه من عتقائك من النار ومن المقبولين، اللهم أعطنا سؤلنا، اللهم اصلح بالنا، اللهم اشرح للإيمان صدورنا، اللهم ارضَ عنا برضاك، اللهم اعف عنا بعفوك، اللهم أدخلنا في أبواب رحمتك يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، ثبت قلوبنا على دينك وعلى طاعتك، وافتح لنا أبواب محبتك، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا.

اللهم اجعلنا من التائبين، واجعلنا من العابدين ومن الحامدين، واجعلنا من السائحين والراكعين، واجعلنا من الساجدين، واجعلنا من الحافظين لحدود الله وبشر المؤمنين.

اللهم اعطنا ولا تحرمنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا، مَن كان منا ومن أحبابنا مريضًا فاشفه يا شافي العلل يا دافع البلايا يا الله، فرج عنا ما نحن فيه، واصرف عنا ما نحن فيه، يا واهب الخيرات، يا قاضي الحاجات، يا سامع الدعوات، يا مغيث اللهفات، أسألك بنور وجهك أن تذكرنا في الملأ الأعلى، نسألك يا ربنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيمًا.

اللهم جُد علينا بالكرم، اللهم بارك لنا في أرزاقنا وأعمالنا، وبارك لنا في أولادنا، وبارك لنا في عافيتنا، اللهم انصر إسلامنا، اللهم قوِّ إيماننا، أسألك يا الله يا رب البيت العتيق يا رب الحل والحرم يا رب إبراهيم وموسى يا رب عيسى ومحمد، يا إله الأولين والآخرين، يا رافع السماء، يا سامع الدعاء، يا قابل الرجاء، يا كاشف البلاء، اصرف البلاء، واصرف الوباء عن بلادنا وعن عبادك المسلمين، يا سامع الصوت، يا سابق الفوت، يا كاسي العظام لحمًا بعد الموت، هوِّنْ علينا الصعاب، وخفف عنا الحساب، ويسر علينا كل عسير.

أسألك يا الله يا عفو يا غفور يا رب يا عظيم يا جواد يا كريم نحن ضيوفك، وأنت أكرم الأكرمين، فلا تردنا عن بابك، ولا تخرجنا من جنابك إلا وقد أكرمتنا، وعفوت عنا، وقضيت حوائجنا، وأعتقت رقابنا، ورحمت أمواتنا، وأصلحت بالنا.

يا الله يا رحمن يا ودود يا حليم يا ذا العرش المجيد يا فعالًا لما يريد، يا من هو الرحمن على العرش استوى، لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة، لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، لا تعذب هذه القلوب الشاكرة، لا تعذب هذه الأعين الباكية، لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا إليك يوم القيامة يا ربنا ناظرة.

يا الله، انظر إلينا، وتلطف بنا، وجُد علينا، وأشهد علينا ملائكتك، وحملة عرشك، وأشهد علينا زوار بيتك المعمور، اللهم لا تخرجنا من مقامنا إلا وقد غسلت أوزارنا، وقبلت توبتنا، وغسلت حوبتنا، ولينت قلوبنا، وهوَّنْت علينا الصعاب، وكشفت عنا الكرب يا كاشف الكرب العظيم اكشف الكرب العظيم، يا غافر الذنب العظيم اغفر الذنب العظيم، اللهم اجعل هذه الساعة ساعة رضا، وساعة رحمة، وساعة نور، وساعة عفو، يا رب عفوك، عفوك، عفوك.

ما لنا سواك يا الله، يا رحمن يا رب، إحسانك يا الله، نحن عبيدك الضعفاء الواقفون بين يديك، المستأنسون بك، المشتاقون إليك، وأنت الجواد الكريم، وأنت الرب العظيم، أسألك يا الله بنور وجهك العظيم أن تنور قلوبنا ووجوهنا وقبورنا ومحشرنا ومنشرنا، ووقوفنا بين يديك، اللهم أمِّنَّا عند الفزع الأكبر، اللهم لا تخزنا يوم يبعثون، اللهم لا تخزي النبي صلى الله عليه وسلم فينا.

أسألك يا الله بسلطانك، وبنورك بعرشك، وبأسمائك الحسنى كلها أن تجبر أمة حبيبك، وأن تستر أمة حبيبك، وأن تعفو عن أمة حبيبك، اللهم استر عورة أمة حبيبك، اللهم نجنا من الأهوال العظام، أسألك نفسًا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بعطائك، وتقنع بما أعطيتها وأوليتها يا رب العالمين.

ربِّ اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم؛ فإنك أنت الأعز العزيز الأكرم.

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ) [إبراهيم: ٤٠-٤١].

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد ألا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر: ١-٣].

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

تمام النعمة

تمام النعمة

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأراضين، عِزِّ كل ذليل، وغنى كل فقير، ومفزع كل ملهوف، وغياث مَن لا غياث له، وسند من لا سند له، وناصر من لا ناصر له، لا يرتفع شيء إلا بإذنه، ولا ينخفض شيئًا إلا بمشيئته، يحكم ما يشاء، ويختار ما يشاء، ويخلق ما يشاء، ويُصَيِّر ما يشاء إلى ما يشاء.

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [الرعد: ٤١].

اللهم إنا نحبك ونخشاك، ونحبك ونرجوك، ونحبك ونحب مَن أحبوك، فاجعل حبَّنَا لك وحبنا فيك أحب إلينا من أنفسنا، وأحب إلينا من الدنيا كلها، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا للهِ) [البقرة: ١٦٥].

فاللهم املأ قلوبنا وجوارحنا حبًّا لك وخوفًا منك، اللهم املأ قلوبنا وجوارحنا سعيًا إلى مرضاتك، وسعيًا إلى أبواب رحمتك، واجعلنا من الذين يسارعون في الخيرات، قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: ٩٠].

فاللهم ارزقنا الإخلاص لك، والصدق بين يديك، وحسن الإنابة إليك، وحسن الخشوع بين يديك.

والصلاة والسلام على صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى الذي نوَّرَ الله به الأفهام، وأذهب الله به الأوهام، وشرح الله به الصدور، وفتح الله به القلوب، وكشف الله به الكروب، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي علم المتعلمين، قال تعالى: (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: ١١٣].

فاللهم اجعل صلاتنا وسلامنا على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه نورًا لنا في وجوهنا، ونورًا لنا في قلوبنا، ونورًا لنا في قبورنا، ونورًا لنا يوم العرض على ربنا.

أعزكم الله تعالى بالإيمان، وقوَّى إيمانكم وشد أزركم في طاعته، فاللهم إني أسألك أن تذيقنا حلاوة الإيمان، وحلاوة الرضا بك، وحلاوة الرضا عنك، واجعلنا من المتذكرين لنعمائك، قال تعالى: (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) [الأعلى: ١٠]. فسيتعظ الذي يخاف ربه، واجعلنا راضين بما قسمت لنا.

اللهم اجعل معيتنا معية صادقة، واجعل لنا وإياكم قدم صدق ولسان صدق وقول صدق، واختم لنا بمقعد صدق، قال تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) [القمر: ٥٤-٥٥]. أي: إن المتقين في بساتين عظيمة وأنهار واسعة يوم القيامة، في مجلس حق، لا لغو فيه ولا تأثيم عند الله المَلِك العظيم، الخالق للأشياء كلها، المقتدر على كل شيء تبارك وتعالى.

اللهم علِّمْنا بك، وخوِّفْنا منك، وعرِّفْنا بالصالحين، وافتح مسامع قلوبنا لك، وأيقظ همتنا إلى طاعتك، واجعل شغلنا بك لا بغيرك، واجعل إقبالنا لك لا لغيرك.

موضوع هذا الدرس هو (تمام النعمة)، فندعو الله تعالى أن يتم علينا وعليكم النعمة والنعيم، والرضا والرضوان والقبول، وأن يختم لنا ولكم بمعية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الكرام.

تمام النعمة فوز بالجنة، والنجاة من النار، مقتبس من كلام حبيبكم صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: "أي شيء تمام النعمة؟" قال: دعوة دعوت بها أرجو بها الخير. قال: "فإن مِن تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار"، وسمع رجلًا وهو يقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: "استجيب لك فسل"، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال: "سألت الله البلاء فسله العافية".

تمام النعمة بمعنى أفضل نعمة الإنسان يريدها، ويسعى إليها، ويطلبها من الله العظيم الحليم الكريم الوهاب التي يسعى إليها الأولون والآخرون هي فوز بالجنة ونجاة من النار، فاللهم إنا نسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل.

الإنسان يتفكر في خلق الله، ولا يتفكر في ذات الله، فإذا تفكر في خلق الله أوصله الله تعالى إلى الخوف منه، قال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: ١٩١]. أي: الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم: قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وهم يتدبرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: يا ربنا ما أوجدت هذا الخلق عبثًا، فأنت منزَّه عن ذلك، فاصْرِف عنا عذاب النار.

فالإنسان يتفكر، والتفكر نعمة مستقلة من الله تعالى لعباده؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه بعد أن أنزلت على قلبه الشريف عشر آيات في خواتيم سورة آل عمران، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه: "ويل لِمَن قرأها ولم يتفكر فيها"، فقد قال عبيد بن عمير لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: "يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي"، قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سَرَّك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بَلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لِمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا؟! لقد نزلت علي الليلة آية ويل لِمَن قرأها ولم يتفكر فيها: (إن في خلق السماوات والأرض) الآية كلها [آل عمران: ١٩٠]".

فالإنسان إذا جاءته موعظة من ربه فلم ينتبه إلى هذه الموعظة ولم يتفاعل مع هذه الموعظة فقد ضَيَّع نعمةً قد ساقها الله إليه، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه كلما نظر إلى السماء قال: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: ١٩١]. إذن المسلم ينجو إذا سأل الله تعالى أن يتم عليه نعمته، وهذه النعمة هي حسن الخواتيم ليختم الله لك بالقبول، وأن يختم لك الله بالجنة، هذه أرقى نعمة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) [فصلت: ٣٠]. أي: إن الذين قالوا ربنا الله تعالى وحده لا شريك له، ثم استقاموا على شريعته، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون بها.

لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، وذاقوا حلاوة النعيم في الدنيا، فعند الموت أكرمهم الله تعالى بأعظم نعمة، وهو أن ثبتهم الله تعالى عند فراق هذه الحياة.

فتمام النعمة التي أتم الله تعالى بها النعيم كله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكل نعمة أنت مطالب أن تشكر الله عليها، فهل شكرت الله تعالى على نعمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ كما جاء في قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [المائدة: ٣]. أي: اليوم أكملت لكم دينكم دين الإسلام بتحقيق النصر وإتمام الشريعة، وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ورضيت لكم الإسلام دينًا فالزموه ولا تفارقوه، فمَن اضطرَّ في مجاعة إلى أكل الميتة، وكان غير مائل عمدًا لإثم، فله تناوله، فإن الله غفور له، رحيم به.

فالإسلام نعمة، والإيمان نعمة، والرسول صلى الله عليه وسلم نعمة، والذي علمك الإسلام وتعلمت معه الإيمان مع القرآن هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [المائدة: ٣].

فتمام النعمة في الشريعة الإسلامية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويجب عليك أن تشكر الله على نعمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) [آل عمران: ١٤٤]. أي: وما محمد إلا رسول من جنس الرسل الذين قبله يبلغ رسالة ربه، أفإن مات بانقضاء أجله أو قُتِل كما أشاعه الأعداء رجعتم عن دينكم، وتركتم ما جاءكم به نبيكم؟ ومن يرجِعُ منكم عن دينه فلن يضر الله شيئًا، إنما يضر نفسه ضررًا عظيمًا، أما مَن ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام، فإن الله يجزيه أحسن الجزاء.

(وسيجزي الله الشاكرين) على أن الله تعالى جعلك من أمة خير النبيين، فمَن كان من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهذه نعمة مستقلة؛ لأنها أُمَّة مرحومة، وسيدنا موسى عليه السلام عندما أعطاه الله النبوة والرسالة والكلام قال له: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) [الأعراف: ١٤٤]. أي: قال الله يا موسى: إني اخترتك على الناس برسالاتي إلى خلقي الذين أرسلتك إليهم وبكلامي إياك مِن غير وساطة، فخذ ما أعطيتك مِن أمري ونهيي، وتمسَّك به، واعمل به، وكن من الشاكرين لله تعالى على ما آتاك من رسالته، وخصَّك بكلامه.

ماذا تفعل يا موسى مع هذه النعم الجمة، ومع هذه النعم العظيمة؟ قال تعالى: (فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) [الأعراف: ١٤٤]، فكلما أعطاك الله تعالى نعمة، وكلما أعطاك الله تعالى رسالة، وكلما خصك واختارك واصطفاك لرسالة إيمانية معينة في هذه الحياة فتلك نعمة لك أن جعل الله تعالى قلبك وسمعك مدادًا لنور الله تعالى، وحجب هذه النعمة عن آخرين، وأعطاها الله تعالى لك، ألا تحمد الله تعالى عليها؟ قال تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: ١١٢]. أي: وضرب الله مثلا بلدة "مكة" كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان مِن ضيق العيش، يأتيها رزقها هنيئًا سهلًا من كل جهة، فجحد أهلُها نِعَمَ الله عليهم، وأشركوا به، ولم يشكروا له، فعاقبهم الله بالجوع، والخوف من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيوشه، التي كانت تخيفهم؛ وذلك بسبب كفرهم وصنيعهم الباطل.

وقوله تعالى: (رغدًا)، يعني: سهلًا، ماذا فعلوا؟ وماذا كان ينبغي أن يفعلوا؟ ألا يحمدوا الله تعالى الذي ساق الرزق لهم رغدًا سهلًا؟ هذا هو المتوقع أن يكون منهم، ولكنهم ما فعلوا، وإنما قال تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) [النحل: ١١٢].

أي: وضرب الله مثلا بلدة "مكة" كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان مِن ضيق العيش، يأتيها رزقها هنيئًا سهلًا من كل جهة، فجحد أهلُها نِعَمَ الله عليهم، وأشركوا به، ولم يشكروا له، فعاقبهم الله بالجوع، والخوف من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيوشه التي كانت تخيفهم؛ وذلك بسبب كفرهم وصنيعهم الباطل.

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ)، وأَنْعُم الله تعالى في هذه الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) [النحل: ١١٢]، والآية التي بعدها تفسر المعنى، (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ) [النحل: ١١٢]. أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس نعمة واحدة، وإنما نعمة ونعمة ونعمة، ورحمة ورحمة ورحمة ورحمة، ونور ونور ونور ونور، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف: ١٥٧]. أي: هذه الرحمة سأكتبها للذين يخافون الله ويجتنبون معاصيه، ويتبعون الرسول النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يجدون صفته وأمره مكتوبَيْن عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالتوحيد والطاعة وكل ما عرف حُسْنه، وينهاهم عن الشرك والمعصية، وكل ما عرف قُبْحه، ويُحِلُّ لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمناكح، ويُحرِّم عليهم الخبائث منها كلحم الخنزير، وما كانوا يستحلُّونه من المطاعم والمشارب التي حرَّمها الله، ويذهب عنهم ما كُلِّفوه من الأمور الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتل أم خطأ، فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم وأقروا بنبوته، ووقروه وعظَّموه ونصروه، واتبعوا القرآن المنزل عليه، وعملوا بسنته، أولئك هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين.

ماذا أنت فاعل لأجل نعمة الله عليك في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ يدلك الله تعالى على ذلك في القرآن، فيقول تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف: ١٥٧].

فالمطلوب منك ومن كل مسلم يريد شكر نعمة النبي صلى الله عليه وسلم أن تمتثل قول المولى سبحانه: (وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف: ١٥٧].

فإذا كنت كذلك فأنت ممن قال الله تعالى فيهم: (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الزمر: ٢٢]. أي: أفمن وسَّع الله صدره، فسعد بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على بصيرة من أمره وهدى من ربه، كمن ليس كذلك؟ لا يستوون. فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم، وأعرضت عن ذكر الله، أولئك في ضلال بيِّن عن الحق.

وقال تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) [الإسراء: ١٠٥]. أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لأمْرِ العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وبالصدق والعدل والحفظ من التغيير والتبديل نزل، وما أرسلناك -أيها الرسول- إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاع، ومخوفًا بالنار لِمَن عصى وكفر.

وكما جاء في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الأنفال: ٣٣]. أي: وما كان الله سبحانه وتعالى ليعذِّب هؤلاء المشركين، وأنت -أيها الرسول- بين ظهرانَيْهم، وما كان الله معذِّبهم، وهم يستغفرون من ذنوبهم.

فلأنه صلى الله عليه وسلم نعمة فإنه علمك كيف تشكر المنعم، ومتى تشكر، فعلمك النبي صلى الله عليه وسلم أن كل صباح يطل عليك يتنفس بحمد الله، كما قال تعالى: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) [التكوير: ١٨]، عندما يتنفس الصباح بأمر الله؛ فإن الله تعالى فالق الإصباح؛ لأنه فالق الحب والنوى فهو فالق الإصباح، فكلما أشرق عليك صبح تنفس بحمد الله، فهل تنفست مع الصبح بحمد الله؟

إن التنفس بحمد المولى جل في علاه يكون كما ورد عن الصحابي الجليل عبد الله بن غنام البياضي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "مَن قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر، فقد أدَّى شكر يومه، ومَن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته".

فهل أنت في نعمة واحدة أم آلاف النعم؟ أنت في آلاف النعم؛ لأن داخل النعمة الواحدة من الله تعالى ملايين النعم؛ ولذلك قال لك الملك تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) [لقمان: ٢٠]. أي: ألم تروا أيها الناس أن الله ذلَّل لكم ما في السماوات من الشمس والقمر والسحاب وغير ذلك، وما في الأرض من الدوابِّ والشجر والماء، وغير ذلك مما لا يحصى، وعمَّكم بنعمه الظاهرة على الأبدان والجوارح، والباطنة في العقول والقلوب، وما ادَّخره لكم مما لا تعلمونه؟ ومن الناس مَن يجادل في توحيد الله وإخلاص العبادة له بغير حجة ولا بيان، ولا كتاب مبين يبيِّن حقيقة دعواه.

فقول النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك". ليس لي فضل فيها، وليس لي فضل أن أكون شاكرًا؛ لأن الشيطان لا يريدني أن أكون شاكرًا، قال تعالى عن الشيطان وهو يريد غواية بني آدم: (ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: ١٧]. أي: ثم لآتينَّهم من جميع الجهات والجوانب، فأصدهم عن الحق، وأُحسِّن لهم الباطل، وأرغبهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة، ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك.

الشيطان يستطيع أن يهبط عزيمتك في شكر الله؛ لأنه لا يريدك أن تكون شاكرًا أبدًا؛ لذلك لم يحذر الله تعالى العباد من اتباع الشيطان، بل حذرهم وأنذرهم من اتباع خطوات الشيطان؛ لأنه يتبع خطوات كثيرة حتى يُوقعك في الحرام

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [النور: ٢١]. أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسلكوا طرق الشيطان، ومَن يسلك طرق الشيطان فإنه يأمره بقبيح الأفعال ومنكراتها، ولولا فَضْلُ الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طَهُرَ منهم أحد أبدًا مِن دنس ذنبه، ولكن الله بفضله يطهر من يشاء، والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم.

فقوله تعالى: (مَا زَكَى)، يعني: ما تطهر، وما ارتفع، وما ترقى، وما صلى، وما تزكى، وما ذكر، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [النور: ٢١].

فالله جل في علاه جعلك في موضع ذِكر، وجعلك في موضع شكر أن دعاك إلى رحابه، وأيقظ قلبك، وأسمعك خيرًا؛ لأن الله تعالى علم أن فيك خيرًا، فقال تعالى: (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) [الأنفال: ٢٣]. أي: ولو علم الله في هؤلاء خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه وبراهينه، ولكنه علم أنه لا خير فيهم، وأنهم لا يؤمنون، ولو أسمعهم -على الفرض والتقدير- لتولَّوا عن الإيمان قصدًا وعنادًا بعد فهمهم له، وهم معرضون عنه، لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه. فاللهم أسمع قلوبنا خيرًا، وأسمع قلوبنا قرآنك المجيد.

وكما جاء في قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) [الإسراء: ١٠٥]. أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لأمْرِ العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وبالصدق والعدل والحفظ من التغيير والتبديل نزل، وما أرسلناك -أيها الرسول- إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاع، ومخوفًا بالنار لمن عصى وكفر.

(وبالحق أنزلناه) يعني على القلوب المؤمنة، كأنه يتنزل مرتين، وفي كل مرة فإن القلب يطمئن بذكر الله.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر، فقد أدَّى شكر يومه، ومَن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته". أي أنه إذا قالها وداوم عليها في الصباح وجاءته نِعَم الله كثيرة، فقد شكر الله تعالى قبل أن تأتيه النعم، فهناك شكر قبل حدوث النعمة، وهناك شكر عند حدوث النعمة، وهناك شكر بعد حدوث النعمة، وهذه مدرسة محمدية في متابعة ذكر الله عز وجل، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الأحزاب: ٤١-٤٢]. أي: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْرًا كثيرًا، واشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير.

فالنعمة قبل أن تأتيك تحمد الله تعالى عليها، فاستيقاظك لصلاة الفجر نعمة؛ لأنها مؤهلة لنعمة قبل النعمة هي الاستيقاظ قيام القلب لله، وبعد أن صليت الفجر حمدت الله تعالى على أن أقامك بين يديه، وهناك آخرون ما قامت قلوبهم، وما قامت أرواحهم، وما قامت أبدانهم فسُلِبُوا نعمة الحب لله.

فتمام النعمة أن تشكر الله تعالى قبل حدوث النعمة، ثم أثناء النعمة، ثم بعد حدوث النعمة؛ لأن الله تعالى شاهد عليك في الأحوال الثلاثة.

والقرآن أيضًا نعمة ينبغي للعبد أن يشكرها، قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [يونس: ٦١]. أي: وما تكون -أيها الرسول- في أمر مِن أمورك وما تتلو من كتاب الله من آيات، وما يعمل أحد من هذه الأمة عملا من خير أو شر إلا كنا عليكم شهودًا مُطَّلِعين عليه، إذ تأخذون في ذلك، وتعملونه، فنحفظه عليكم ونجزيكم به، وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه.

وعندما تأتي في المساء فإنك لابد أن تعيد العهد مع الله، ربما تنسى كما نسي أبوك، كما جاء بقوله تعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْما) [طه: ١١٥]. ولقد وصينا آدم مِن قَبلِ أن يأكل من الشجرة، ألا يأكل منها، وقلنا له: إن إبليس عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة، فتشقى أنت وزوجك في الدنيا، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، ونسي آدم الوصية، ولم نجد له قوة في العزم يحفظ بها ما أُمر به.

فلما نسي نسيت ذريته، فقد كان هناك عهد كبير وميثاق غليظ بينه وبين الله أن يستجيب لله، وينصت لله، وأن يكون وقافًا عند حدود الله، فلم يتحمل، وما حدث مع أبيك آدم يريد الشيطان أن يكرره معك أنت، ويفعل نفس الخطة ويرسم نفس المعالم، قال تعالى عن الشيطان: (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) [الأعراف: ٢١]. أي: وأقسم الشيطان لآدم وحواء بالله إنه ممن ينصح لهما في مشورته عليهما بالأكل من الشجرة، وهو كاذب في ذلك.

يحلف بالله أنني أعظك لأجل مصلحتك، والله تعالى لا يريد لك أن ينصحك؛ لأنه عدو لك، ومنذ متى وكان العدو ناصحًا؟! فقال لك الملك الكبير: إن الخطة التي فعلها مع أبيكم آدم يريد أن يفعلها معكم مليون ألف مرة، فقال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ٢٧]. أي: يا بني آدم لا يخدعنَّكم الشيطان، فيزين لكم المعصية، كما زيَّنها لأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما بسببها من الجنة، ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتنكشف لهما عوراتهما، إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأنتم لا ترونهم فاحذروهم. إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ)، كيف يا رب؟ يسلب منك النعمة،

ويضيع عليك النعمة، ويحبط عندك النعمة، ويصغر عندك النعمة، ويقلل النعمة في قلبك وفي ناظريك؛ ولذا فقال لك الملك في كتابه الكريم: (ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: ١٧]. أي: ثم لآتينّهم من جميع الجهات والجوانب، فأصدهم عن الحق، وأُحسِّن لهم الباطل، وأرغبهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة، ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك.

فالخطة السابقة يفعلها الآن معك كما أخرج أبويكم من الجنة، (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ٢٧]. فالطاعة ستر على المطيع، والمعصية كشف وعري، فلما انكشفت سوءة آدم وعندما انكشفت سوءة حواء ماذا يفعلان؟ كلٌّ منهما يريد أن يستتر، فقال تعالى: (فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [الأعراف: ٢٢]. أي: فجرَّأهما وغرَّهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها، فلما أكلا منها انكشفت لهما عوراتهما، وزال ما سترهما الله به قبل المخالفة، فأخذا يلزقان بعض ورق الجنة على عوراتهما، وناداهما ربهما جل وعلا ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة، وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة؟ وفي هذه الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه كان ولم يزل مستهجَنًا في الطباع، مستقبَحًا في العقول.

فكان يقطع الأوراق الخضراء فيفسد، فقد جعلته المعصية منكشفًا، فعندما أراد أن يستر نفسه فأفسد في الأرض، قال تعالى: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [الأعراف: ٢٢]. في هذه اللحظة رجعا إلى الله: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف: ٢٣]. أي: قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن ممن أضاعوا حظَّهم في دنياهم وأخراهم. (وهذه الكلمات هي التي تلقاها آدم من ربه، فدعا بها فتاب الله عليه).

فآدم عليه السلام رجع وتذكر، وهذه نعمة؛ لأنه اعترف، والاعتراف نعمة، ومن أعظم النعم أن تعترف بين يدي قيوم السماوات والأرض؛ لأنك إذا لم تعترف الآن ستعترف عليك جوارحك شهودًا يوم القيامة، قال تعالى: (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ١٠٢]. أي: وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها، اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح -وهو التوبة والندم والاعتراف بالذنب وغير ذلك من الأعمال الصالحة- بآخر سيِّئ -وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من الأعمال السيئة- عسى الله أن يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

فهذا اعتراف المذنب الضعيف، يقول: يا رب سامحني، لقد تغلب عليَّ الشيطان، وقهرتني نفسي الضعيفة يوم كذا، يا رب ما غفلت، وإنما أغفلني الشيطان، وإني أعود إليك، وإني أتوب إليك فأدخلني في رحمتك يا أرحم الراحمين.

ولأن الله تعالى أراد لسيدنا آدم أن يتم عليه النعمة فعلمه نعمة التوبة، ومن تمام النعم أن يتوب الله عليك، قال تعالى: (لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ١١٧]، فتوبته تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين وعلى الأنصار رضي الله عنهم أن فرج الله تعالى عليهم، فاللهم فَرِّجْ عنا ما نحن فيه. ولأن الله تعالى أراد لسيدنا آدم عليه السلام أن يتوب بعد أن اعترف بذنبه، فقد علمه كيف يتوب؟ (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ)، فالله سبحانه وتعالى هدى قلبه إلى أن يتوب، وعلمه أن يتذوق نعمة التوبة، وعلمه أن يتذوق حلاوة الإيمان بعد أن ذاق مرارة المعصية. فاللهم أذقنا وإياكم حلاوة الإيمان. فلا زلنا نتعلم من مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فعندما يأتي المساء تقول: (اللهم ما أمسي بي من نعمة أو بأحد مِن خلقك فمنك وحدك لا شريك لك)، ولسان حال المؤمن الموحد: يا رب أنا لست أنانيًّا، وإنما جميع النعم التي جاءت إلى أهلي وإلى أحبابي وإلى أصدقائي وإلى جيراني فإني أحمدك عليها؛ كأن لساني ينوب عن آخرين غافلين عن ذكر الله، معنى هذا أن الواحد يذكر بلسانه وبلسان غيره، وهناك آخرون لم يذكروا ولم يحمدوا ولم يشكروا فإنك تحمد الله تعالى نيابة عنهم.

إذن علمك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الصيغة المحمدية الجميلة التي إذا واظبت عليها كتبك الله تعالى عنده من الحامِدِين الحمَّادِين، ومن الشَّاكِرين الشَّكَّارين.

ثم إن الله تعالى أمر رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم أن يكونوا من الشاكرين، فكيف يشكر الله؟ قال تعالى: (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِي السماوات وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) [الروم: ١٧-١٨].

فكلما رأيت الشمس مشرقة أو غاربة فتقول: سبحان الله، كما قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [الفرقان: ٦٢]. أي: وهو الذي جعل الليل والنهار متعاقبَيْن يَخْلُف أحدهما الآخر لمن أراد أن يعتبر بما في ذلك إيمانًا بالمدبِّر الخالق، أو أراد أن يشكر لله تعالى على نعمه وآلائه، وإذا كان شاكرًا فهو من عباد الرحمن. فاللهم أظلَّنا بظلِّ عرشك يوم لا ظل إلا ظلك.

فقوله تعالى: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) [الروم: ١٧-١٨]. أي: فيا أيها المؤمنون سبِّحوا الله ونزِّهوه عن الشريك والصاحبة والولد، وَصِفوه بصفات الكمال بألسنتكم، وحقِّقوا ذلك بجوارحكم كلها حين تمسون، وحين تصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة، وله سبحانه الحمد والثناء في السماوات والأرض وفي الليل والنهار.

فالله تعالى جمع الفرائض الخمس في آية واحدة؛ لأنه يريد لقلبك أن يكون ذكارًا شكارًا، كما قال تعالى: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) [الأعراف: ٢٠٥]، أي: واذكر -أيها الرسول- ربك في نفسك تخشعًا وتواضعًا لله خائفًا وجل القلب منه، وادعه متوسطًا بين الجهر والمخافتة في أول النهار وآخره، ولا تكن من الذين يَغْفُلون عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم.

فإذا لم تذكر في الصباح، ولم تذكر في الآصال، فكيف يكون حالك؟ (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)، فالسكوت عن ذكر الله تعالى غفلة.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ) [الأنفال: ٤٥]. أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا ولا تنهزموا عنهم، واذكروا الله كثيرًا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظَّفَر بعدوكم؛ لكي تفوزوا.

فالإنسان عندما يكون مضطربًا أو فزعًا أو حزينًا أو خائفًا فإنه يتثبت بنعمة ذكر الله تعالى، فقد ورد في (الدعاء) للطبراني عن محمد بن سهل العمار، حدثني أبي أنه كان في مجلس الحجاج بن يوسف وهو يعرض خيلًا وعنده أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: يا أبا حمزة أين هذه من الخيل التي كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: تلك والله كما قال الله عز وجل: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) [الأنفال: ٦٠]، وهذه هُيِّئَت بالرياء والسمعة، فغضب الحجاج وقال: لولا كتاب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلَيَّ لفعلت ولفعلت، فقال له أنس: إنك لن تطيق ذلك، لقد علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحترز به من كل شيطان رجيم، ومن كل جبار عنيد، فجثا الحجاج على ركبتيه وقال: علمنيهن يا عم، فقال: لست لها بأهل، قال: فدس إلى عياله وولده فأبوا عليه، قال محمد بن سهل: قال أبي: حدثني بعض بنيه أنه قال: "بسم الله على نفسي وديني، بسم الله على ما أعطاني ربي عز وجل، بسم الله على أهلي ومالي، الله أكبر، الله ربي، الله أكبر، الله ربي لا أشرك به شيئًا، أجرني من كل شيطان رجيم، ومن كل جبار عنيد، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم".

فمَن يقول: أنا أخاف على نفسي، وخائف على مستقبلي، وخائف على ولدي، وخائف على زوجتي، وأخشى إن ذهبت إلى عملي أو خرجت من بيتي فإني لا أرى أولادي بعد هذا، هذا متوتر قلق خائف، فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم نعمةَ ذِكرِ الله تعالى الذي يذهب المصيبة؛ لأن الإنسان إذا كان متوترًا وقلقًا فليس عنده سكينة، فطالما ليس عنده سكينة فليس عنده آمن، فإذن ليس عنده أمان ولا استقرار فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغرس السكينة في قلبه، كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الفتح: ٤].

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم "الحديبية" فسكنت، ورسخ اليقين فيها؛ ليزدادوا تصديقًا لله واتباعًا لرسوله مع تصديقهم واتباعهم. ولله سبحانه وتعالى جنود السماوات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين. وكان الله عليمًا بمصالح خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه.

فالنبي صلى الله عليه وسلم علمه أن يحافظ على دينه أولًا، فقال: "بسم الله على نفسي وديني"، فأهم شيء هو الدين والإيمان وقيمتك عند الله تعالى في الآخرة، وفي الملأ الأعلى، كما جاء بقوله تعالى: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا) [الفرقان: ٧٧]. فأخبر الله تعالى أنه لا يبالي ولا يعبأ بالناس، لولا دعاؤهم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، فقد كَذَّبتم-أيها الكافرون- فسوف يكون تكذيبكم مُفْضِيًا لعذاب يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، ويهلككم في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠]. أي: وقال ربكم: أيها العباد، ادعوني وحدي وخصُّوني بالعبادة أستجب لكم، إن الذين يتكبرون عن إفرادي بالعبودية والألوهية، سيدخلون جهنم صاغرين حقيرين. فاللهم اشرح بالإيمان صدورنا وصدوركم.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رسول صلى عليه وسلم ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار، يقال له: أبو أمامة، فقال: "يا أمامة، ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة؟"، قال: هموم لزمتني، وديون يا رسول الله، قال: "أفلا أعلمك كلاما إذا أنت قلته أذهب عز وجل همك، وقضى عنك دينك؟"، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: "قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال"، قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل همي، وقضى عني ديني.

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتفقد وجوه الناس، ويعيش مع الناس، ويسألهم: ما الذي يتعبك؟ ما الذي يحزنك؟ ما الذي أهمك؟ هذه هي أخلاق الإسلام، فالإسلام لا يعرف مبدأ (أنا ومن بعدي الطوفان) أو مبدأ (أنا في حالي وأنت في حالك)، قال تعالى: (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون) [النور: ٦١]. أي: فإذا دخلتم بيوتًا مسكونة أو غير مسكونة فليسلِّم بعضكم على بعض بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا لم يوجد أحد، وهذه التحية شرعها الله، وهي مباركة تُنْمِي المودة والمحبة، طيبة محبوبة للسامع، وبمثل هذا التبيين يبيِّن الله لكم معالم دينه وآياته؛ لتعقلوها، وتعملوا بها.

وكما هو حال سيدنا سليمان عليه السلام، فإنه أصبح ملكًا ونبيًّا، ويجلس يتفقد الطير، فهل هذه وظيفته؟ وهل هو ملاحظ طيور؟ ولكن ربنا يعلمنا أن الإنسان إذا أوكله الله تعالى برعية الناس، فعليه أن يتفقدهم؛ لأنه مسئول عن طعامهم وعن شرابهم وعن نومهم يوم القيامة.

فسيدنا سيلمان أصبح مشغولًا بهدهد، كما قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) [النمل: ٢٠]. أي: وتفقد سليمان حال الطير المسخرة له وحال ما غاب منها، وكان عنده هدهد متميز معروف فلم يجده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد الذي أعهده؟ أسَتَره ساتر عني، أم أنه كان من الغائبين عني، فلم أره لغيبته؟

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن"، قالوا: مَن يا رسول الله؟ قال: "مَن بات شبعان وجاره جائع".

فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل أبا أمامة، وعرف سبب حزنه، علمه النبي صلى الله عليه وسلم أدعية تُذهب عنه الهم، وتُذهب الدَّيْنَ بإذن الله تعالى، ثم علمه الدعاء السابق، فتلقف الصحابي الجليل كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الذي سيحل له المشكلة هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: "قل إذا أصبحت وإذا أمسيت...".

فمشكلة الناس الكبرى هذه الأيام هي الهم والحزن، والهم هو التفكير في المستقبل، لكن السؤال: مَن كفاك اليوم؟ ومَن كفى أباك وأمك وجدك والقرون الأولى؟ إنه الذي سيكفيك الآن، قال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) [الفرقان: ٥٨].

هل أيقنت أنه حي؟ وهل للحي أن يغفل عن أحبابه؟ الناس يكونون في غفلات، ويعلم الله تعالى أنهم في غفلات وفي سكرات؛ ولأنه كبير ولأنه عظيم فإنه لا يؤاخذ العباد بسوآتهم أبدًا، ولو أخذهم جميعهم بسيئاتهم لأهلك مَن في الأرض كلهم أجمعين.

ثم أقسم الجبار جل في علاه على مسألة الرزق فقال: (فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [الذاريات: ٢٣]. فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أَنَّ ما وعدكم به حق، فلا تَشُكُّوا فيه كما لا تَشُكُّون في نطقكم.

ثم قال الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه: فلما قلتها أذهب الله تعالى ما أهمني وما أغمني. فالله تعالى قضى عنه الدين، كيف يقضي الله عنه الدين؟ يفتح له أبواب السداد، أو أن يجعل صاحب الدين يعفو عنه، وكل هذه من آيات كرم الله تعالى، أو على الأقل صاحب الدين يمهله، فكلٌّ هذه أبواب فرج.

ومن تمام نعمة الله على العبد المسلم أنه يذكر ربه دائمًا في الصباح والمساء، وقلبه حاضر دائمًا مع أصوات الداعين والذاكرين، وتلك نعمة من الله، فكلما أوشكت الشمس أن تغرب فإنه يحيي الشمس بالدعاء، فعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند أذان المغرب: "اللهم إن هذا إقبالُ ليلِكَ، وإدبار نهارِك، وأصوات دُعَاتِك، فاغفر لي".

فكلما رأيت الشمس وهي تغرب فقل: (اللهم هذا إقبال ليلك)، يعني أردت أن تحيي الشمس أن تذكر الله تعالى معها؛ لأن الشمس بعد قليل توشك أن تغرب، وعندما تغرب فإنها تحمر، وتصل إلى مرحلة الشفق، وعندما تغرب فإنها تسجد تحت عرش الرحمن، فأنت تقول للشمس: سبحان من جعلكِ ذهبية، ثم سبحان من جعلك خائفة من جلاله؛ لأنها لا تغرب عنك إلا وقد أحمرت؛ لأنها بعد قليل تسجد تحت عرش الرحمن متزلزلة خائفة من قيوم وعظمة الخالق جل جلاله.

وعندما ينصرف الشهر العربي ويأتي الشهر الذي يليه فإن القلب الحاضر يقول: الله أكبر الله أكبر، ربي وربك الله، فيكون قلبك حاضرًا مع الأيام، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الذي علمك أن يكون قلبك يقظًا مع تتابع دوران الليل والنهار، واليوم والليلة، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) [الشورى: ٢٩]. أي: ومن آياته الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه، خَلْقُ السماوات والأرض على غير مثال سابق، وما نشر فيهما من أصناف الدواب، وهو على جَمْع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة إذا يشاء قدير، لا يتعذر عليه شيء.

فكل شيء يسبح، وكل شيء يصلي، فأنت تعيش في روضة من رياض الجنة، وليس روضة واحدة، وإنما روضة العلم، وروضة ذكر الله، وروضة الحب في الله، وعمارة المساجد... إلخ، فهذه روضة مع روضة مع روضة، قال تعالى: (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ) [الشورى: ٢٢]. أي: ترى -أيها الرسول- الكافرين يوم القيامة خائفين من عقاب الله على ما كسبوا في الدنيا من أعمال خبيثة، والعذاب نازل بهم، وهم ذائقوه لا محالة، والذين آمنوا بالله وأطاعوه في بساتين الجنات وقصورها ونعيم الآخرة، لهم ما تشتهيه أنفسهم عند ربهم، ذلك الذي أعطاه الله لهم من الفضل والكرامة هو الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي إليه العقول. فاللهم اجعلنا وإياكم في روضات الجنات.

ومن تمام النعمة أن تحمد الله تعالى على نعمة القرآن، قال تعالى: (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ) [الرحمن: ١-٣]. الرحمن علَّم الإنسان القرآن؛ بتيسير تلاوته وحفظه وفهم معانيه. خلق الإنسان،

فأيهما أولًا من حيث ترتيب الخلق: الإنسان أم القرآن؟ إن الله تعالى خلق الإنسان، ثم اختار خير الأنام سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل عليه القرآن، ولكن الله تعالى جعل القرآن أولًا؛ لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق البشر، قال الملك تعالى: (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: ٤-٥]. أي: علَّمه البيان عمَّا في نفسه تمييزًا له عن غيره، الشمس والقمر يجريان متعاقبَين بحساب متقن، لا يختلف ولا يضطرب.

فكل هذه نعم من تمام النعمة لله عز وجل، وفي كلِّ ما تقدم من هذه النعم أنه أيقظ قلبك، وسألك سؤالًا صعبًا كلما ذكر لك نعمة حتى الموت نعمة، ففي سورة الرحمن كلما ذكر لك نعمة سألك سؤالًا، وقال لك: (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن: ١٣]؟ أي: فبأي نِعَم ربكما الدينية والدنيوية- يا معشر الجن والإنس- تكذِّبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة، فكلما مر بهذه الآية، قالوا: "ولا بشيء من آلائك ربَّنا نكذب، فلك الحمد"، وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يُقرَّ بها، ويشكر الله ويحمده عليها.

فهل ستكذب بالرحمن أم تكذب بالقرآن أم تكذب بخلق الإنسان أم بالشمس والقمر؟ قلت: وبأي آلائك نكذب يا ربنا؟ كما قال تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) [النحل: ٥٣]. أي: وما بكم مِن نعمةِ هدايةٍ، أو صحة جسم، وسَعَة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمِنَ الله وحده، فهو المُنْعِم بها عليكم، ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقحط فإلى الله وحده تَضِجُّون بالدعاء.

لكنك لكي تشكر وكي تصل إلى تمام النعمة فإنك في حاجة إلى إعانة من الله تعالى، فاللهم أعنِّي على ذِكرك، وعلى شكرك، وحسن عبادتك.

فلكي تشكر وتستمر في الشكر وفي العبادة فأنت في حاجة إلى إعانة وإغاثة من الله عز وجل الذي يلهمك أن تكون شاكرًا؛ لأنك وحدك لن أستطيع أن تواصل نعمة الشكر ولا نعمة الإيمان، كما قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) [النمل: ١٩]. أي: فتبسم ضاحكًا من قول هذه النملة لفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل، واستشعر نعمة الله عليه، فتوجَّه إليه داعيًا: ربِّ أَلْهِمْني، ووفقني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ، وأن أعمل عملا صالحًا ترضاه مني، وأدخلني برحمتك في نعيم جنتك مع عبادك الصالحين الذين ارتضيت أعمالهم.

فلكي تشكر فأنت في حاجة إلى (ربِّ أوزعني)، وسيدنا سليمان عليه السلام يعلم أنه كي تدوم له نعمة الشكر لله عز وجل فلن يستطيع أن يكون شاكرًا، ولا يستطيع أن يكون شكارًا إلا إذا أعانه الله على ذلك، وهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعنِّي على ذِكرِك وشكرك وحسن عبادتك". فاللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد.

فالمسلم يحتاج الثبات، فالناس أحوالهم متقلبة، وظروف وصعوبات الحياة تجعل الناس متقلبة، والنبي صلى الله عليه وسلم علمك أنه لن يثبت الإيمان في قلبك إلا باليقين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: "اللهم اقسمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومِن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصيبات الدنيا، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على مَن ظلمنا، وانصرنا على مَن عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همِّنَا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا مَن لا يرحمنا".

وعن أبي العلاء بن الشخير، عن رجل من بني حنظلة، قال: صحبت شداد بن أوس في سفر، فقال: ألا أعلمك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا؟ أن نقول: "اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شُكرَ نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانًا صادقًا، وقلبًا سليمًا، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب".

لكنك بعد كل هذه الرحلة مع تمام النعمة في حاجة إلى مَن يذكرك بنعمة الله تعالى عليك، ولن يذكرك بهذا إلا القرآن العظيم، فهو أرقى نعمة وأعظم نعمة وأجلُّ نعمة وأكمل نعمة، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [لقمان: ٢٧]. وقال: ولو أن أشجار الأرض كلها بُريت أقلامًا والبحر مداد لها، ويُمَد بسبعة أبحر أخرى، وكُتِب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفِد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد. إن الله عزيز في انتقامه ممن أشرك به، حكيم في تدبير خلقه، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى حقيقة كما يليق بجلاله وكماله سبحانه. فالذي يذكرك بالله هو القرآن العظيم.

فالذي يتذكر لا بد أن يكون قلبه حاضرًا، ولا يكون فيه ملل من ذكر الله، ولا ينصرف من مجالس العلم، وإنما يبحث عن رياض الجنة، وعن المجالس التي يحبها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الملائكة تنادي: هلموا إلى غايتكم.

فيا الله، يا أرحم الراحمين، يا سابق الفوت، يا كاسي العظام لحمًا بعد الموت، اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، ونحن بين يديك، في رحابك، وأنت مطلع علينا، وأنت ناظر إلينا، وملائكتك معنا يا الله، ورحماتك نازلة علينا يا الله، فمَن يرحمنا إذا لم ترحمنا يا الله، فمَن يعفو عنا إذا لم تعفو عنا يا الله، اللهم عافنا واعفُ عنا، واغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد عدد ما مشى فوق السماوات والأراضين ودرج، والحمد لله الذي بيده مفاتيح الفرج، صلِّ عليه عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك.

قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

النعمة والعافية

النعمة والعافية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، لا عِزَّ إلا في طاعته، ولا نعيم إلا في رضاه، ولا سعادة إلا في التذلل بين يدي عظمته، اللهم لك الحمد كالذي نقول، ولك الحمد خيرًا مما نقول، ولك الحمد قبل الرضا، ولك الحمد عند الرضا، ولك الحمد بعد الرضا، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء: ١١١].

سبحان مَن تواضعت الجبال لعظمته، سبحان مَن تحركت القلوب من خشيته، سبحان من رغمت الأنوف بين يديه، سبحان مَن ذلت الأعناق والجباه بين يديه، سبحان مَن اشتاقت قلوبنا إليه وأنفسنا إليه، قال تعالى: (قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) [طه: ٨٤].

فاللهم أرضنا وارضَ عنا، وعافنا واعفُ عنا، ويَمِّنَا، وأصلحنا، وأغثنا، واسقنا، وأقلنا، وأقل بنا.

اللهم لك الحمد على هذه الجموع المؤمنة، اللهم لك الحمد على هذه القلوب الشاكرة، اللهم لك الحمد على هذه الألسن الذاكرة، اللهم لك الحمد على هذه النيات المتطلعة إلى كرمك يا رب العالمين، اللهم لك الحمد في جميع الأحوال، فأنت (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [الرحمن: ١-٤].

فاللهم علمنا علمًا ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، اللهم نوِّرْ قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا يا رب العالمين، نشهد لك بالوحدانية، ونشهد لك بالربوبية، فأنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الأول بلا إبتداء، وأنت الآخر بلا انتهاء، وأنت الظاهر وأنت الباطن، وأنت على كل شيء قدير.

قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: ١١٠]. أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى من ربي أنما إلهكم إله واحد، فمَن كان يخاف عذاب ربه ويرجو ثوابه يوم لقائه، فليعمل عملًا صالحًا لربه موافقًا لشرعه، ولا يشرك في العبادة معه أحدًا غيره.

فاللهم إنا آمنا بك، وأسلمنا قلوبنا ووجوهنا وأبداننا وجوارحنا لك يا رب العالمين، وفوَّضْنا أمورنا كلها إليك، قال تعالى: (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [غافر: ٤٤].

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، سيرته خير السِّيَر، وعطرته خير العطر، وإمام الحق، وسيد الخلق، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه عدد مَن صلَّى عليه، وعدد مَن لم يصلِّ عليه، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه صلاة ترضيك وترضى بها عنا، قال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٨].

اللهم إنا فرحون بك، اللهم إنا فرحون بالقرآن، اللهم إنا فرحون بالإيمان، اللهم إنا فرحون بالمساجد، اللهم إنا فرحون بعُمَّار المساجد، اللهم إنا فرحون بذكرك، اللهم إنا فرحون بالأنس إليك، اللهم إنا فرحون بحسن اليقين بك، اللهم إنا فرحون بحسن الوثوق فيك وبك، فاللهم زدنا يقينًا بك، اللهم زدنا هداية بك، اللهم أذقنا وإياكم حلاوة الإيمان، وبرد العافية، وما أجمل العافية.

موضوع هذا الدرس هو النعمة والعافية، فاللهم إنا نسألك العفو والعافية، وتمام العفو المغفرة يا رب العالمين.

أجمل شيء في هذه الحياة أن يعافيك الله تعالى من الناس، فالناس يعتقدون أن العافية فقط في عافية الأبدان، بأن يكون جسمه سليمًا وليس مريضًا ولا سقيمًا ولا عليلًا، وهذا غير صحيح، فعن أنس بن مالك قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال: يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: "سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة". ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: "سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة". ثم أتاه في اليوم الثالث فقال: يا نبي الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: "سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإذا أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فقد أفلحت".

فعندما سُئل الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في أيام متتالية: علمني دعاءً أدعو به يا رسول الله، فقال له: "قل: اللهم إني أسألك العفو والعافية"، فإذا أعطاك الله العافية فقد أعطاك خير الدنيا، وإذا أعطاك الله العفو فقد أعطاك الله الآخرة، وإذا جمع الله لك بين العفو والعافية فقد أعطاك خيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) [المؤمنون: ١١٨]. أي: وقل أيها النبي: ربِّ تجاوَزْ عن الذنوب وارحم؛ وأنت خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته ولم يعاقبه على ذنبه.

وقال تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٨٦].

فدِينُ اللهِ يُسرٌ لا مشقة فيه، فلا يطلب الله مِن عباده ما لا يطيقونه، فمن فعل خيرًا نال خيرًا، ومَن فعل شرًّا نال شرًّا، وربنا سبحانه لا يعاقبنا إن نسينا شيئًا مما افترضته علينا، أو أخطأنا في فِعْل شيء نهيتنا عن فعله، ربَّنا ولا تكلفنا من الأعمال الشاقة ما كلفته مَن قبلنا من العصاة عقوبة لهم، ربنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا نستطيعه من التكاليف والمصائب، وامح ذنوبنا، واستر عيوبنا، وأحسن إلينا، أنت مالك أمرنا ومدبره، فانصرنا على مَن جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك، وكذَّبوا نبيك محمدًا صلى الله عليه وسلم، واجعل العاقبة لنا عليهم في الدنيا والآخرة.

فلا بد أن نتعلم من هديه الشريف صلى الله عليه وسلم، ليس فقط هذه الأدعية لأنها عظيمة وجميلة، ولكن أن نفهم معنى الدعاء، لماذا نسأل الله العافية؟ هل هي أفضل ما في الحياة؟ ولماذا لم يقل مثلًا: سل اللهَ المداومة على الصلاة؟ ولماذا لم يقل صلى الله عليه وسلم أن ذكر الله هو أفضل ما في الحياة؟ ولماذا لم يقل أن الزكاة هي أفضل ما في الحياة؟ إنما جمع النبي صلى الله عليه وسلم جمال وحلاوة هذه الحياة في نعمة واحدة هي نعمة العافية، لماذا يا حبيب الله صلى الله عليه وسلم؟ علمنا النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا آخر فقال: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك"، فاحذر أن يسخط الله عليك، واحذر أن تُغضِب قيوم السماوات والأرض، واحذر أن تغضب الجبار

كما جاء في قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الزمر: ١٣]. أي: قل -أيها الرسول- للناس: إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته والإخلاص في طاعته عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يعظم هوله.

وقال تعالى: (كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى) [طه: ٨١]. أي: كلوا من رزقنا الطيب، ولا تعتدوا فيه بأن يظلم بعضكم بعضًا، فينزل بكم غضبي، ومَن ينزل به غضبي فقد هلك وخسر.

أتريد أن تكون في الهاوية في الدنيا والآخرة؟ بالطبع لا، فعلمك النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك"، فالعافية هي النجاة.

هل علمت لماذا قال: "العافية"؟ لأن النجاة كلها في العافية.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: "وبمعافاتك من عقوبتك"، فالقرآن بين يديك، وكلام الله بين يديك، قيل لك: اقرأ المصحف فهو كلام الله، فقلت: لا أستطيع أن أقرأ، قيل لك: اسمعه من غيرك، فقلت: ليس عندي وقت، ثم هجرت القرآن، فذهبت عنك عافية الله، ورغم أنك تأكل وتشرب من أجل عافية البدن، لكن القلب ليس فيه عافية، فالعافية هي النجاة من الناس، فاللهم نجنا وإياكم من الناس، فالقلب المتعلق بالخلق مهجور، والمشغول بالناس وبأحوال الناس لا يستطيع أن يقيم الليل، ولا يصوم النهار.

فإذا انشغل الإنسان بتتبع الناس؛ فإن حالات الإيمان التي يعيشها تذهب عنه، والأشياء التي يعيبها على الناس ستكون فيه، فلو أن الله تعالى أعطاك خيرًا ومنعه عن الناس فجلست تقول: فلان لا يعمل كذا، ولا يعمل كذا، وأنا أفعل وأفعل... إلخ، فالأشياء التي فعلتها ستذهب عنك؛ لأنك انشغلت بالآخرين، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: "كل مخموم القلب، صدوق اللسان"، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: "هو التقي النقي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد". وقوله: (مخموم القلب) أي: هو النقي الذي لا غِلَّ فيه ولا حسد، وهو من خممت البيت إذا كنسته.

فعندما تنشغل بالناس يبدأ القلب يسود ويتجعد وينقبض وينتن، وقبل أن ينتن فإنه يصدأ، فتحول القلب من حالة النقاء إلى حالة الصدأ، فإذا ما صدأ القلب أصبح نتنًا، فابتعدت عنك ملائكة الرحمن، قال تعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) [طه: ٨٢]. أي: وإني لغفار لمن تاب من ذنبه وكفره، وآمن بي وعمل الأعمال الصالحة، ثم اهتدى إلى الحق واستقام عليه.

فلا بد أن يكون الإنسان له قلب مخموم، يعني قلب بعيد عن الانشغال بالناس، وعن تتبع عورات الناس، وعن ذكر الناس، هذا هو القلب الذي يدخل صاحبه الجنة، فكل هؤلاء الناس محجوبون مبعدون محرمون إلا طائفة واحدة، كما جاء بقوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: ٨٩]. أي: إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الكفر والنفاق والرذيلة.

فالله تعالى عافاه من القيل والقال، وعافاه الله تعالى أن يذهب عنه نور الإيمان، لكنه عندما يكذب فإنه يسود، وعندما تخون العينان فإن الوجه يسود، وعندما تغفل عن ذكر الله تعالى فإنك لا تذكر في الملأ الأعلى، فصرت مهجورًا، إذن أنت لست في عافية، قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ) [البقرة: ١٥٢]. أي: أمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على مَنْ ذكره، وخصوني -أيها المؤمنون- بالشكر قولا وعملا ولا تجحدوا نعمي عليكم.

فأنت ما ذكرت الله تعالى في الأرض، فكيف يذكرك في السماء، وقد قال تعالى: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) [العنكبوت: ٤٥]. أي: اتل ما أُنزل إليك من هذا القرآن، واعمل به، وأدِّ الصلاة بحدودها، إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات؛ وذلك لأن المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، ولَذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء. والله يعلم ما تصنعون مِن خيرٍ وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

فالقلب التقي النقي هو القلب المخموم، هذا القلب الذي لا إثم فيه ولا بغي، هل القلب فيه بغي؟ نعم، عندما يحقد على الناس، صار قلبًا طاغيًا وفيه طغيان، وعنده اعتراض على حكم الملك، فيقول: يا رب فلان أحسن مني في ماذا؟ لماذا تعطي الناس وتمنع عني يا رب؟ صار هذا القلب قلبًا مهجورًا مطرودًا؛ لأنه تعدى حدودًا لا ينبغي أن يتعداها، والبغي القلب الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا الطغيان، والطغيان: أن تأخذ ما ليس لك، وكل ما خلق الله تعالى ملتزم بعبادة الله تعالى، إلا بني آدم ليس ملتزمًا مع الله، قال تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: ٤٠]. أي: لكل من الشمس والقمر والليل والنهار وقت قدَّره الله له لا يتعدَّاه، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر فتمحو نوره، أو تغير مجراه، ولا يمكن للَّيل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، وكل من الشمس والقمر والكواكب في فلك يَجْرون.

وقال تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ) [الرحمن: ١٩-٢٠]. أي: خلط الله ماء البحرين -العذب والملح- يلتقيان. بينهما حاجز، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ويذهب بخصائصه، بل يبقى العذب عذبًا، والملح ملحًا مع تلاقيهما.

فكل شيء في الكون ملتزم بأمر الله تعالى له، كما جاء بقوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت: ١١]. أي: ثم استوى سبحانه وتعالى، أي قصد إلى السماء وكانت دخانًا من قبلُ، فقال للسماء وللأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين. قالتا: أتينا مذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

فالكون كله طائع لله، ولم يشذ عن القاعدة إلا ابن آدم، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) [ص: ٢٣]. أي: قال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون من النعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة، فطمع فيها، وقال: أعطنيها، وغلبني بحجته. أهذا قلب نقي تقي؟ لا، هذا قلب آثم قاطع، جبار متكبر، طاغٍ وظالم.

ولا تنسَ إننا عندما نتذاكر العفو والعافية فاعلم أنه من العافية أنك لا تظلم ولو بكلمة واحدة؛ لأنك إذا ظلمت غيرك فإنك تظلم نفسك أولًا؛ ولذا قال الملك سبحانه تعالى: (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا) [النساء: ١١٠]. أي: ومن يُقْدِمْ على عمل سيِّئ قبيح، أو يظلم نفسه بارتكاب ما يخالف حكم الله وشرعه، ثم يرجع إلى الله نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرته وستر ذنبه، يجد الله تعالى غفورًا له، رحيمًا به.

فإن الذي يظلم يظلم نفسه، والله تعالى جل جلاله لا يريد منك إلا أن يستمع إلى الكلام الطيب، والله تعالى يريدك على هذه الحالة يريدك تقيًّا نقيًا زاهدًا ورعًا، والشيطان يريدك مرجمًا ملعنًا، ويريد أن يخرج من دائرة الإيمان ومن حلاوة الإيمان ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية، قال تعالى: (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [المجادلة: ١٩]. أي: غلب عليهم الشيطان، واستولى عليهم، حتى تركوا أوامر الله والعمل بطاعته، أولئك حزب الشيطان وأتباعه. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

وكما جاء بقوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨]. أي: ولا تُطِعْ من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا، وآثَرَ هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعًا وهلاكًا.

حتى إذا أردت أن تجالس، وإذا أردت أن تصادق فلا بد أن تصادق أصحاب القلوب النقية التقية، الذين يذكرونك بالله ويذكرونك بالآخرة ويذكرونك بالقبر وبالموت وبالوقوف بين يدي قيوم السماوات والأرض، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه: ١٢٤]. أي: ومَن تولَّى عن ذكري الذي أذكِّره به فإن له في الحياة الأولى معيشة ضيِّقة شاقة -وإن ظهر أنه من أهل الفضل واليسار-، ويُضيَّق قبره عليه ويعذَّب فيه، ونحشره يوم القيامة أعمى عن الرؤية وعن الحجة.

ورد في الصحيح عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه".

فالأول فأراد أن يجلس في الصف الأول أن يكون قريبًا من النور فقربه الله، وأما الثاني فتأخر وأستحي أن ينافس الناس، فجلس في الصف الثاني أو جلس خارج الدرس، وإما الثالث فإنه لا يريد العلم، ولا الطاعة، ولا ذكر الله عز وجل، فترك مجلس العلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه"، كما جاء بقوله تعالى: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف: ٣٦]. أي: ومن يُعْرِض عن ذكر الرحمن، وهو القرآن، فلم يَخَفْ عقابه، ولم يهتد بهدايته، نجعل له شيطانًا في الدنيا يغويه؛ جزاء له على إعراضه عن ذكر الله، فهو له ملازم ومصاحب يمنعه الحلال، ويبعثه على الحرام.

فالبيت الذي لا يذكر فيه اسم الله تعالى تملؤه الشياطين، والبلد التي لا يرفع فيها الآذان كل من فيها تملأهم الشياطين، فذِكر الله رحمة، والآذان رحمة، والإيمان رحمة، والصلاة رحمة، قال تعالى: (ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) [البقرة: ٦٤]. أي: ثم خالفتم وعصيتم مرة أخرى، بعد أَخْذِ الميثاق ورَفْع الجبل كشأنكم دائمًا. فلولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته بالتوبة، والتجاوز عن خطاياكم، لصرتم من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [النور: ٢١]. أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسلكوا طرق الشيطان، ومَن يسلك طرق الشيطان فإنه يأمره بقبيح الأفعال ومنكراتها، ولولا فَضْلُ الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طَهُرَ منهم أحد أبدًا مِن دنس ذنبه، ولكن الله- بفضله- يطهر من يشاء. والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم. فاللهم انشر علينا من رحماتك يا أرحم الراحمين.

فإذا ما أعطاك الله تعالى صحبة طيبة أناسًا طيبين من أحباب المساجد، ومن أهل القرآن، ومن أهل الخير فتلك نعمة لا تعادلها نعمة، هذه أفضل نعمة أن تجد حولك قلوبًا حية مؤمنة، قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨]. أي: واصبر نفسك -أيها النبي- مع أصحابك مِن فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء، يريدون بذلك وجهه، واجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا، ولا تُطِعْ من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا، وآثَرَ هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعًا وهلاكًا. فاللهم لا تحرمنا من شرف النظر إلى وجهك الكريم.

هذه عافية أن الله تعالى جعل لك جلساء صالحين، لا أحد فيهم يجامل ولا ينافق ولا يكذب، وإنما يرى فيك نفسه، يقول لك: أنا خائف عليك، أنت فعلت كذا بحسن نية، أنت حسن القصد وتخاف الله، ولكن أخطأت السبيل... إلخ، إنه يذكرك بالله، فهو مرآتك، فنريد مرآة صادقة مع الله، ولا خير فينا إذا لم نقلها، بعض الناس تغضب إذا ذكرته بالله، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) [البقرة: ٢٠٦].

فإذا قيل له: (اتقِ الله)، أخذته العزة بالإثم، ويقول: أنت تراني عاصيًا؟ ثم تكون القطيعة بينهما، والله تعالى جل جلاله من فوق سبع سماوات يقول لحبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) [الأحزاب: ١].

إذن العافية أن يجعل الله لك صحبة طيبة يذكرونك بالله تعالى، وعندما تغفل عن ذكر الله يأخذون بيدك إلى الخير، فما الخير الذي أراده الله؟ وماذا أراد الله تعالى منك؟ قال تعالى: (لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ١١٤]. أي: لا نفع في كثير من كلام الناس سرًّا فيما بينهم، إلا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التوفيق بين الناس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا الله تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلًا واسعًا.

فلو استطاع شخص بفضل الله تعالى أن يأخذ طالبًا أو طالبة من الشارع، وكان يشاهد الأفلام والمباريات، وقال له: خذ المصحف وسأعلمك كتاب الله حتى تنتهي من حفظ كلام الله، وحتى يكون قلبك كله نورًا، فكم يأخذ من حسنات؟ على كل حرف يتعلمه لك عشرات الحسنات، وإذا علمت ولدك القرآن الكريم فلك بكل حرف يتعلمه ولدك عشرات الحسنات، هذا معنى قوله تعالى: (إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ) [النساء: ١١٤].

وعندما تصلي الجمعة، هل ذكرت أولادك وبناتك وأخواتك وزوجتك أن يصلوا الجمعة؟ هل أمرتهم بالصلاة؛ لأنك تخشى عليهم من عذاب الله يوم القيامة؟ كما قال تعالى: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) [الزمر: ١٥].

فاعبدوا أنتم- أيها المشركون- ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام وغير ذلك من مخلوقاته، فلا يضرني ذلك شيئًا. وهذا تهديد ووعيد لمن عبد غير الله، وأشرك معه غيره. قل أيها الرسول: إن الخاسرين حقًّا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك بإغوائهم في الدنيا وإضلالهم عن الإيمان، ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة هو الخسران البيِّن الواضح. فاللهم قِنا عذابك يوم تبعثُ عبادك.

فقوله تعالى: (لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ) [النساء: ١١٤]. يعني أنه ليس هناك في الحياة أعظم من هؤلاء الثلاثة، لكن إذا أردت أن تفعل هذه الأشياء فلا بد أن تعاهد ربًّا كريمًا أنها لله وحده، قال تعالى: (وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ١١٤].

فالعافية: أن يعافيك الله من الحرام، وأن يعافيك الله تعالى من قول الزور، وأن يعافيك الله تعالى من رؤية المنكرات... والناس الذين يجلسون دائمًا في معصية ربنا جل وعز، فهذا حجب الله عنه نعمة العافية، ووقع في الحرام، والله تعالى يخوف عباده من معصيته فقال تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الزمر: ١٣]. وقال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [آل عمران: ١٦١]. أي: وما كان لنبيٍّ أن يَخُونَ أصحابه بأن يأخذ شيئًا من الغنيمة غير ما اختصه الله به، ومن يفعل ذلك منكم يأت بما أخذه حاملا له يوم القيامة؛ ليُفضَح به في الموقف المشهود، ثم تُعطى كل نفس جزاءَ ما كسبت وافيًا غير منقوص دون ظلم.

ورد أن أحد الناس ظل يُحاسب في البرزخ ثلاث سنوات على إبرة خيط أخذها من جاره، قال له: سلفني إبرة، فأعطاه الإبرة والخيط، ونسي أن يعيدهما، فظَلَّ يُحاسب ثلاث سنوات على إبرة الخيط! لأن الله تعالى قال: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء: ٥٨]. أي: إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات، التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها، فلا تفرطوا فيها، ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط، إذا قضيتم بينهم، ونِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه، إن الله تعالى كان سميعًا لأقوالكم، مُطَّلعًا على سائر أعمالكم، بصيرًا بها.

فإذا ظلمت دون أن تقصد لا بد أن تحاسب نفسك، وتذهب إلى من ظلمته وتقول له: سامحني، أنا أعتذر لك، فاقبل معذرتي في الدنيا قبل أن يسود وجهي يوم القيامة، فنجاتي في يدك، وعافيتي في يدك، ولا تتركه حتى يجعلك في حِل من مظلمته، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه، قال: كان أسيد بن حضير رجلًا صالحًا ضاحكًا مليحًا، فبينما هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث القوم ويضحكهم فطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرته، فقال: أوجعتني، قال: "اقتص"، قال: يا رسول الله، إن عليك قميصًا، ولم يكن عَلَيَّ قميص، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه، فاحتضنه، ثم جعل يقبل كشحه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أردت هذا.

والمسلم الذي يذهب للحج ويدفع أربعين أو خمسين ألف جنيه، وأحيانًا يدفع في الشركات السياحية مئة ألف جنيه أو ما يزيد قد يعود من الحج ولم يغفر الله تعالى له، هل تعلم لماذا؟ لأن هناك تبعات وحقوق، فإن الله يغفر لأهل عرفة إلا التبعات، فكلُّ ما هو لله فإن الله غفور رحيم، وكل ما هو للناس فلا بد أن تعافي نفسك من الناس، وأن تخلص نفسك من الناس.

وقد ورد في السُّنة قصة غزوة تبوك، وقد قَصَّ الله تعالى علينا منها في سورة التوبة، قال تعالى: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) [التوبة: ٨١]. أي: فرح المخلفون الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقعودهم في (المدينة) مخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرهوا أن يجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ، وكانت غزوة (تبوك) في وقت شدة الحرِّ، قل لهم -أيها الرسول-: نار جهنم أشد حرًّا، لو كانوا يعلمون ذلك.

واعتذر بعض الناس، وخرج الصادقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سيدنا عمر: يا رسول الله، لقد عاهدناك، ونحن نعرف صدقك مع الله، لقد عرفناك في وقت الشدائد إذا ما دعوت الله؛ فإن الله تعالى يستجيب لك، ونحن نعلم إذا قلت: يا رب، سيأتي الفرج، فكان هناك منافق، المنافق ليس معافًى من الناس؛ لأنه مشغول بالناس وبأحوال الناس، فأبعد الله نعمة العافية ليس له خير حتى في نفسه، فقال هذا المنافق: كيف يدعو الله تعالى؟ وكيف يستجيب الله تعالى له ونحن على هذه الحالة من الشدة؟ فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه، وكان إذا دعا يُرَى بياض إبطيه، فقال: "اللهم إنا نستسقيك فاسقنا". فكم تأخذ منا هذه الجملة من الزمن: يا رب حالنا لا يخفى عليك، حالنا ظاهر بين يديك، مَن يفرِّج الكرب إلا أنت؟ مَن يغيث اللهفات إلا أنت؟ مَن يروي ظمئنا إلا أنت؟ من ينصر أمتنا إلا أنت؟ من يكشف الكُربات إلا أنت؟

فاستجاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في لحظة، وإذا بالسحاب يأتي في لحظة، وإذا بالبرق يأتي في لحظة، وإذا بالرعد يأتي في لحظة، وإذا بالمطر ينزل في لحظة، فمَن الذي أغاثك يا رسول الله؟ فانقلب الحر إلى مطر، وانقلب الظمأ إلى ري، فسبحان مَن روى القلوب بحبه، وسبحان من ملأ قلوب أحبابه حبًّا له، وخوفًا منه، وتعلقًا بالله تعالى وحده.

لقد علمت الآن أن الله لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا حتى مثقال ذرة من العمل، فهل أيقنت بهذا؟ قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [يونس: ٦١]. أي: وما تكون -أيها الرسول- في أمر مِن أمورك وما تتلو من كتاب الله من آيات، وما يعمل أحد من هذه الأمة عملا من خير أو شر إلا كنا عليكم شهودًا مُطَّلِعين عليه، إذ تأخذون في ذلك، وتعملونه، فنحفظه عليكم ونجزيكم به، وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه.

فالمسلم يعلِّمُ أبناءه مراقبة الله، وتعظيم الله، كما في قوله تعالى: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) [لقمان: ١٦]. أي: يا بنيَّ اعلم أن السيئة أو الحسنة إن كانت قَدْر حبة خردل- وهي المتناهية في الصغر- في باطن جبل، أو في أي مكان في السماوات أو في الأرض، فإن الله يأتي بها يوم القيامة، ويحاسِب عليها، إن الله لطيف بعباده خبير بأعمالهم.

عندما كنت في مكة شرفها الله تعالى، قالوا: هناك رجل من البدو ينكر وجود الله، وجاء إلى مكة ذات يوم من بدو الطائف لكي يقضي مصلحة، ولم يقل: إن شاء الله، والله تعالى يقول: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [يونس: ٩٩]. أي: ولو شاء ربك -أيها الرسول- الإيمان لأهل الأرض كلهم لآمنوا جميعًا بما جئتهم به، ولكن له حكمة في ذلك؛ فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وَفْق حكمته، وليس في استطاعتك أن تُكْره الناس على الإيمان.

وقال تعالى: (إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) [الكهف: ٢٤]. أي: فتقول: إن شاء الله. واذكر ربك عند النسيان بقول: إن شاء الله، وكلما نسيت فاذكر الله؛ فإن ذِكْرَ الله يُذهِب النسيان، وقل: عسى أن يهديني ربي لأقرب الطرق الموصلة إلى الهدى والرشاد.

وكانوا في هذه الفترة في تاريخ مكة يحفرون الأنفاق، وبعد هذا جاءت اللودرات والحفارات تكسر في الجبل، فنزلت صخرة كبيرة وأرادوا أن يكسروا هذه الصخرة الكبيرة فخرجت من بطنها دودة كبيرة، فقال لهم الرجل البدوي: مِن أين هذه؟ قالوا له: هذه الدودة كانت تعيش وسط الصخرة، فسألهم: مَن كان يرزقها؟ فقالوا: الذي أنكرته، فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

هذا مشهد بسيط جدًّا أنه شاهد هذه الدودة تعيش في الصخرة الصماء، وربما في الليلة الظلماء، لا يعلم حالها إلا الواحد القهار.

وسيدنا يوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلومًا، لم يضع سيدنا يوسف يده على خده يقول: أنا حزين، لماذا يا رب فعلت بي ذلك؟ لم يقل هذا، فأصحاب الهمة العالية لا يعرفون اليأس، فلما دخل السجن أخذ يبحث عن طريق للدعوة إلى الله، استشعر سيدنا يوسف أن الله تعالى أغلق عليه باب الحياة، وفتح له باب السجن لكي يذكر المسجونين بالله تعالى، فأصبح السجن بالنسبة له ليس ظلمًا، إنما أصبح بالنسبة له دعوة إلى الله تعالى، أرادوا أن يذلوه فأعَزَّه الله تعالى، وأرادوا أن يقيدوه فأطلقه الله، وأرادوا أن يعذبوه فحرَّرَه الله تعالى، فعندما دخل تعرف إلى رجلين كافرين كل منهما عنده مشكلة ومصيبة، فاستشعر أن حل المشكلة وحل المصيبة في الإيمان بالله، فقربهما إليه رغم أنهما كانا كافرين، وبدأ يأخذ هذه القلوب والعقول إلى ساحة الإيمان، وما أجمل هذه الساحة! فنادى عليهما: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف: ٣٩]. أي: وقال يوسف للفَتَيين اللذين معه في السجن: أعبادةُ آلهةٍ مخلوقة شتى خير أم عبادة الله الواحد القهار؟ وما هي إلا أيام حتى ذاقوا حلاوة الإيمان.

وسيدنا سليمان عليه السلام استشعر أنه صاحب مسؤولية، وبأنه صاحب رسالة، وأن الهدهد صاحب رسالة ومسؤولية، وفي نهاية المسئولية والرسالة تأتي له امرأة عظيمة برجالها بسطوتها بكل مملكة اليمن تأتي ظاعنة ومستسلمة لله رب العالمين؛ لأنها تعاملت مع رجل عظيم فأذاقها حلاوة الإيمان طوعًا أو كرهًا.

فحياتها كلها كانت ظلمًا؛ لأنها لم تكن تذق حلاوة الإيمان إلا الآن، فيوم أن تذوق حلاوة الإيمان ويتوب الله عليك، فهذا عيدك، فهذه ليلة قدرك، وهذا أحب يوم لك عند الله، كما قال تعالى عنها: (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [النمل: ٤٤]. أي: وقالت: رب إني ظلمت نفسي بما كنت عليه من الشرك، وانقدتُ متابعة لسليمان داخلة في دين رب العالمين أجمعين. فكلٌّ منا يحتاج إلى أستاذ يتعلم منه، وسيدنا سليمان كان أستاذًا معلمًا لهذه المرأة وقومها.

وسيدنا موسى عليه السلام لما قتل الرجل رفع يديه إلى مولاه فـ: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [القصص: ١٦]. أي: قال موسى: رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها فاغفر لي ذلك الذنب، فغفر الله له، إن الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

فاللهم نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة، ونسألك تمام العافية، ونسألك الشكر على العافية التي وهتنيها يا قوي يا عزيز.

اللهم إنا أقبلنا إليك بقلوبنا وأسماعنا وأبصارنا، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، فاللهم لك الحمد أن أعنتنا، وهذه عافية منك، اللهم لك الحمد أن هديتنا، وهذه عافية منك، اللهم لك الحمد أن جمعتنا، وهذه عافية منك.

اللهم إني أحمدك على هذه الوجوه التي زادها الله تعالى نورًا، الحمد لله على هذه الوجوه التي استضاءت بنور القرآن، وبنور ملائكة الرحمن، كما أخبر النبي العظيم صلى الله عليه وسلم.

فالملائكة يثبتون المؤمنين، إنهم يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، فحملة العرش يستغفرون لكم، فانظر كم أنت عظيم عند ربك عندما تطيعه؟! وكم أنت صغير متضائل عندما تغضبه؟! قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [الحج: ١٨]. أي: ألم تعلم- أيها النبي- أن الله سبحانه يسجد له خاضعًا منقادًا مَن في السماوات من الملائكة ومَن في الأرض من المخلوقات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب؟ ولله يسجد طاعة واختيارًا كثير من الناس، وهم المؤمنون، وكثير من الناس حق عليه العذاب فهو مهين، وأيُّ إنسان يهنه الله فليس له أحد يكرمه. إن الله يفعل في خلقه ما يشاء وَفْقَ حكمته.

فالذي يصلي الفجر يستشعر أن أبواب الرحمات مفتوحة كلها، والذي يصلي الفجر في جماعة يكون في غنى وعِز، والذي يصلي العشاء جماعة مبكرًا يستشعر أنه أقام نصف الليل، وأصبح الطريق إلى الجنة ميسورًا أمامك، والذي غفل وتغافل، والذي نسي وتناسى أحصاه الله ونسوه، فاللهم أعِنَّا على طاعتك، ولا تقنطنا من رحمتك، لا تيئسنا من رحمتك، اللهم إنا نسألك الرضا بك، والرضا عنك، والرضا فيك، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى وباسمك الأعظم لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم، يا قابض يا باسط، يا أول يا آخر، يا معز يا مذل، يا قريب يا سميع، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، يا أرحم الراحمين، يا غياث المستغيثين، يا مجيب دعوة المضطرين، إلى مَن تكلنا وأنت القوي العظيم، ارحم ضعفنا، وارحم خوفنا، وارحم ذلنا، وخُذْ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة، ولا تعذب هذه الألسن الذاكرة، لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا إليك يوم القيامة ناظرة.

ما لي سواك يا الله، جمعتنا في محبتك، وأصلحت قلوبنا على طاعتك، وهيَّئت مسمع قلوبنا لذِكرك، وجعلت أُنسنا إليك، وجعلت خوفنا منك، وجعلت إقبالنا إليك، فاللهم آتنا سؤلنا، وحقق رجاءنا، وارفع ذكرنا، وقوِّ إيماننا، وشُد أزرنا، وانصر المستضعفين في أرض فلسطين، اللهم فك الحصار عنهم، ائتِ بالفرج يا كريم، متى نصر الله؟ قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤].

بل أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ولمَّا يصبكم من الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين مضوا من قبلكم: من الفقر والأمراض والخوف والرعب، وزُلزلوا بأنواع المخاوف، حتى قال رسولهم والمؤمنون معه -على سبيل الاستعجال للنصر من الله تعالى-: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب من المؤمنين.

اللهم انصر المستضعفين، اللهم اجعل لهم فرجًا، واجعل لهم مخرجًا، اللهم أنزل الصبر والثبات والسكينة، قال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيما) [الأحزاب: ٢٢]. أي: ولمَّا شاهد المؤمنون الأحزاب الذين تحزَّبوا حول "المدينة" وأحاطوا بها، تذكروا أن موعد النصر قد قرب، فقالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، من الابتلاء والمحنة والنصر، فأنجز الله وعده، وصدق رسوله فيما بشَّر به، وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا بالله وتسليمًا لقضائه وانقيادًا لأمره.

فاللهم زدنا إيمانًا وتسليمًا، اللهم لا تفرق هذه الجموع المؤمنة إلا وقد غسلت أوزارها، اللهم أبسط علينا من بركاتك، اللهم عم بيوتنا بنورك، اللهم عم بيوتنا برحمتك، اللهم عم بيوتنا بعفوك، اللهم اجعل رائحة الجنة تهب علينا الآن، اللهم اجعل لنا لسان صدق، واجعل لنا قدم صدق، واجعل لنا حال صدق، واجعلنا يوم القيامة في مقعد صدق، عند مليك مقتدر يا رحمن يا رحيم.

اللهم اعفُ عنا بعفوك، اللهم ارضَ عنا برضاك، اللهم وسِّع أرزاقنا، ونجح ووفِّق أبناءنا، اللهم افتح لهم الأبواب، واكشف عنهم كل كرب، اللهم اشرح للعلم صدورهم وقلوبهم، ويَمِّنْ كتابنا وكتابهم، مَن يكشف الكرب إلا أنت؟ مَن يهون الصعب إلا أنت؟ من يقرب البعيد إلا أنت؟ مَن ينصر المغلوب إلا أنت؟ مَن يشفى المرضى إلا أنت؟ من يرحم الموتى إلا أنت؟ من يقوينا إلا أنت؟ مَن يرحمنا إلا أنت؟ مَن يثبتنا إلا أنت؟ مَن يغيث لهفتنا إلا أنت؟ من يقبل توبتنا إلا أنت؟ من يعفو عن مسيئينا إلا أنت؟ من يتجاوز عن السيئات؟ من يغفر الزلات؟ من يقبل التوبات؟ من يصلح النيات؟ من ينصر الإسلام؟ من يعلِّم القرآن؟ من يهدي العباد؟ من يؤلف القلوب؟ من يكشف الكروب؟ من يتوب على العاصي حتى يتوب؟ اللهم أنزل في قلوبنا محبتك، اللهم اجعل لنا وُدًّا، وكن لنا سندًا.

أُغلقت البواب إلا بابك، فافتح لنا أبواب الرحمات، وادخلنا في المثوبات، وأعتق منا الرقاب، وخفف عنا الحساب، وهوِّنْ علينا الصعاب، وارحمنا إذا أغلقت الأبواب، وبدأ الحساب، وابتعد الأحباب، مَن يؤنث وحشتنا إلا أنت؟ مَن يخفف عنا في قبورنا إلا أنت؟ عصيناك كثيرًا وسترت علينا كثيرًا، وحلمت علينا كثيرًا، وغفرت لنا كثيرًا، فكما سترت علينا في الدنيا فاستر علينا، ولا تفضحنا يوم العرض عليك، اجعل وجوهنا ناضرة إلى ربها ناظرة.

اللهم عم بلادنا بالرخاء، اللهم عمها بالقرآن، اللهم اشملهم بالرحمات، اللهم اهدِ الشباب والفتيات، اللهم أنزل السكينة عليهم، اللهم حَبِّب المسلمين في القرآن، وعمارة المساجد، وحب صلاة الفجر وقرآن الفجر، اللهم أذقهم حلاوة الإيمان، اللهم اجعل غايتهم رضاك، واجعل سعيهم رضاك، واجعل قصدهم رضاك، لعلك ترضى عنا يا الله.

اللهم أنت ناظر إلينا وأنت مطلع علينا، وأنت تعلم حالنا، وترى مكاننا، ولا يخفى عليك شيء من أمرنا، ونحن الذليلون بين يديك، الخاضعون بين يديك، المقبلون إليك، انظر إلينا يا رحمن، يا سميع يا بصير، انظر إلى عبيدك الذين لم يملوا من ذِكرِك، ولم يملوا من مؤانستك، انظر إلينا وباهِ بنا ملائكتك، وباهِ بنا حملة عرشك، وقل لهم: يا ملائكتي إن عبادي جالسون في طاعتي، وهم سعداء لا يشقى جليسهم، أشهدكم يا ملائكتي إني قد عفوت عنهم، وغسلت أوزارهم، وقبلت توبتهم، قوموا مغفورًا لكم، ومن يغفر الذنوب إلا الله.

اللهم إنا على عهدك ووعدك ما استطعنا، نبوء لك بعمتك علينا، ونبوء لك بذنوبنا فاغفر لنا؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) [إبراهيم: ٣٨].

نسألك أن تقبل توبتنا، وأن تعفو عنا، وأن تستر علينا، وأسألك قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيمًا، اللهم اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم؛ فإنك أنت الأعز العزيز الأكرم، قال تعالى: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [إبراهيم: ٤١]، ربنا اغفر لي ما وقع مني مما لا يسلم منه البشر واغفر لوالديَّ، واغفر للمؤمنين جميعًا يوم يقوم الناس للحساب والجزاء.

قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦]. أي: إن الله تعالى يثني على النبي صلى الله عليه وسلم عند الملائكة المقربين، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له، يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، صلُّوا على رسول لله، وسلِّموا تسليمًا، تحية وتعظيمًا له.

وصفة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثبتت في السُّنة على أنواع، منها: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد".

الصغائر الموبقات

الصغائر الموبقات

الحمد لله رب العالمين، يعلم حاجات المتضرعين، ويعلم ضمائر السائلين، يا قاضي الحاجات، يا عالم الخفيات، يا مقيل العثرات، يا باعث الأموات، يا مَن أمره بين الكاف والنون، يا مَن إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، الكون كله في قبضتك، والعالم كله مربوط بعظمتك، لا يتقدم شيء إلا بمشيئتك، ولا يتأخر شيء إلا بإرادتك، يا عالم الأسرار، يا مَن يقلب الليل والنهار، لا إله إلا أنت الحليم الستار.

والصلاة والسلام على نور الأنوار، وسر الأسرار، أسعد مخلوقاتك، وأكمل أهل أرضك وسماواتك، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد عدد أوراق الأشجار، ومثاقيل البحار، وذرات الرمال، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار.

اللهم علمنا علمًا ينفعنا، اللهم انفعنا بما علمتنا، اللهم ارزقنا حلاوة الإيمان، وحسن اليقين، وحسن الإنابة والإخلاص بين يديك.

قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، أي: قل أيها الرسول للناس محذرًا: هل نُخبركم بأخسر الناس أعمالا؟ إنهم الذين ضلَّ عملهم في الحياة الدنيا -وهم مشركو قومك وغيرهم ممن ضلَّ سواء السبيل، فلم يكن على هدى ولا صواب- وهم يظنون أنهم محسنون في أعمالهم.

يدور موضوع هذا الدرس -أعزكم الله تعالى وأحبكم، ورفع الله تعالى شأنكم، وأعلى ذكركم- عن الصغائر الموبقات، وهي صغائر؛ لأنها ذنوب يعتقد أو يظن الإنسان أنها ذنوب صغيرة بسيطة عابرة، فالذنب يبدو بسيطًا لكنه يهلك صاحبه، كما في الآية الكريمة: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

فالإنسان يأتي بالذنب الذي يعتقد أنه صغير، ويقول: إني سأستغفر الله رب العالمين، ورحمة الله تعالى واسعة، وعندئذ فإنني أفعل من هذه الذنوب ما أشاء، وعندما أحضر إلى الصلاة فإن الصلاة تغسل ما قبلها، لكن الذنب يجعل قلبك أسود، والظلم يُظلِم عليك قلبك قبل أن يظلم عليك قبرك، كما أن الذنب يجعلك محجوبًا عن رحمة الله رب العالمين، كما جاء في قوله تعالى: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥]. أي: حين تتلقفون الإفك وتتناقلونه بأفواهكم، وهو قول باطل، وليس عندكم به علم، وهما محظوران: التكلم بالباطل، والقول بلا علم، وتظنون ذلك شيئًا هيِّنًا، وهو عند الله عظيم، وفي هذا زجر بليغ عن التهاون في إشاعة الباطل.

أي أن الإنسان يأتي بأمور يعتقد أنها هينة، ورغم الاعتقاد أنها هينة لكن ما حظ هذه الذنوب من قلبك؟ وما أثرها عند ربك سبحانه؟ (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥].

فهو ذنب في حجم الجبل، أو في حجم مجموعة من الجبال المتلاصقة المتجاورة التي لا يستطيع المسلم أن يصعد إليها، وإن صعد إليها فهذا بجهد جهيد وبمشقة عظيمة، فإذا نظرت إلى هذه الذنوب الصغار التي نرى أنها صغيرة لكنها عظيمة عند الله تعالى، ومِن هذه الذنوب أن كثيرًا من الناس يستهينون عند قضاء الحاجة، أي أنه إذا أراد أن يغتسل وأن يتطهر من الحدث الأصغر فإنه لا يدقق، ولا يتمهل، ولا ينظف أعضاءه بطريقة جيدة، هذا عمل يراه الناس بسيطًا، بل هو أمر كبير جدًّا؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أن أكثر عذاب القبر من البول، يعني من عدم النظافة الجيدة، أو غسل الأعضاء جيدًا عند قضاء الحاجة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين، فقال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة". وفي رواية ثانية: "كان لا يستبرئ من بوله".

هذه أحوال يكون عليها الإنسان المستهتر في أمر النظافة وفي الاغتسال، وقد قال عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير"، يعني: يعتقد الإنسان أن الأمر ليس كبيرًا إنما هو أمر سهل، أبدًا إنه أمر كبير، كما قال تعالى: (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥].

إذن معظم عذاب القبر يأتي من البول -كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم-، فقال: "وأما الآخر فإنه كان يسعى بالنميمة بين الناس"، هذا أمر يعتقد الناس أنه دردشة، وأنه تسلية لوقت الفراغ، وأنه قتل الأوقات وليس فيه ضرر، بل العكس هو الصحيح؛ فإن هذا مما يورد الناس إلى عذاب القبر، وإلى الهلاك والعذاب في قبورهم، ومثال ذلك: إذا أراد الإنسان أن يصلي فلكي تكون صلاته طيبة مقبولة لا بد أن يكون وضوؤه صحيحًا قائمًا على أساس شرعي، والوضوء كي يكون صحيحًا لا بد أن يكون الإنسان متطهرًا بصورة جيدة، ومعنى ذلك: أن الإنسان إذا لم يحسن قضاء الحاجة ولم يحسن الاغتسال عند قضاء الحاجة فلا صلاة له! (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥].

وبعض الناس أثناء الصلاة يتعجل في الصلاة، خاصة عندما يصلي مأمومًا فإنه يسبق الإمام، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأناة من الله، والعجلة من الشيطان"، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو يبين عقاب من يسبق الإمام في الصلاة: "أما يخشى أحدكم -أو لا يخشى أحدكم- إذا رفع رأسه قبل الإمام، أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار". هذا نص كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يرى الناس أنه يسير، فترى الرجل ينزل قبل الإمام، أو يرفع قبل الإمام، عندئذ دخل في ذم النبي صلى الله عليه وسلم، كأنك لا ينبغي أن تلاحظ الإمام بعينيك، ولا أن تتابع الإمام بنظرك أثناء الصلاة، إنما تتابعه بأذنيك فقط، إذا ما انتهى من قوله: سمع الله لمن حمده، استمعت إلى "الهاء" في كلمة "حمده" فإنك ترفع، ولا ترفع عندما يقول: سمع، وإنما ترفع عندما ينتهي من قوله: سمع الله لمن حمده.

ثم نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإنسان لا يحتقر شيئًا؛ لأن النعم من المنعم سبحانه وتعالى، وعندما تحتقر النعمة؛ فإنك تحتقر المنعم سبحانه وتعالى وعندما تسب النعمة فإنك تسب الخالق سبحانه وتعالى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن المسلم كقتله"، أي: الذي يقول لمسلم: الله يلعنك، أو الله يلعن فلان، أو لعنة الله على فلان... إلخ، فهو كمن قتل فلانًا، فيأخذ وزر وذنب القاتل، قال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) [المائدة: ٣٢].

بسبب جناية القتل هذه شَرَعْنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد الموجب للقتل -كالشرك والمحاربة- فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قَتْل نفس حرَّمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم، ولقد أتت بني إسرائيل رسلُنا بالحجج والدلائل على صحة ما دعَوهم إليه من الإيمان بربهم، وأداء ما فُرِضَ عليهم، ثم إن كثيرًا منهم بعد مجيء الرسل إليهم لمتجاوزون حدود الله بارتكاب محارم الله، وترك أوامره.

إذن لا تحتقر النعم حتى لو كانت صغيرة، ولا تحتقر الذنوب والمعاصي حتى لو كانت صغيرة؛ فإن الجبال من الحصى الجبل، فحصوة مع حصوة مع حصوة عندئذ صارت جبلًا، فالذنوب الصغيرة تجتمع حتى تصير جبالًا، فتأتي على صاحبها فتهلكه، كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها".

لأجل هذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى بغض المسلم الذي يأتي إليه الضيف فيحتقر الإنسان ما عنده، فإن الله يكره إذا نزل عليه ضيف فينظر فيما عنده في المنزل فيجد أشياء بسيطة، فيخرج يستلف من هذا، وأولاده يستلفون من هذا، وبناته يستعيرون من هذا، فإذا فعلت هذا فقد أغضبت الرحمن تبارك وتعالى، فعندما يأتي إليك الضيف فقدِّم له رزقه الذي ساقه الله تعالى له قبل أن يأتي إليك، ولا ينبغي لك أن تكلف نفسك، ولا أن تستدين لتظهر أنك كريم، أو أنك معطاء، فلو فعلت هذا فقد أغضبت الله رب العالمين.

فالإنسان لا يحتقر ما عنده، ولا يحتقر ما قُدِّم له؛ لأجل هذا فإنك لا تستطيع أن تشكر النعمة حتى لو كانت صغيرة، (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النحل: ١٨]. فلو قدمت لضيفك الماء فهو وجبة، وقد قدمت له حق الضيافة؛ لأنه لا يستطيع أن يشكر الله تعالى على نعمة الماء، فلماذا يحتقر ما قدم له، وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة". والفرسن هو الحافر، والحافر ليس فيه لحم أو فيه لحم بسيط لكنك أرسلته إلى جارك، أو تأخذه زوجتك وترسله إلى جارتها، عندئذ فإن الجارة التي جاءها الفرسن شاة لا ينبغي لها أن تحتقر هذا، كما ينبغي لمن يرسل ألا يحتقر ما قدم؛ لأن هذه النعمة كلها من الله، قال تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) [النحل: ٥٣]. أي: وما بكم مِن نعمةِ هدايةٍ، أو صحة جسم، وسَعَة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمِنَ الله وحده، فهو المُنْعِم بها عليكم، ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقحط فإلى الله وحده تَضِجُّون بالدعاء.

فمَن أراد استبقاء النعم فليحمد الله تعالى عليها، فإذا قلت عند كل نعمة: الحمد لله... عندئذ فإن الله تعالى يُبقِي لك النعم ويحفظها لك، ويديمها عليك.

ومن الذنوب التي يرى الناس أنها صغيرة أن الإنسان إذا أراد أن يقضي له مصلحة في مجلس المدينة مثلًا، أو له مصلحة في التربية والتعليم، أو في الشرطة فذهب إلى أحد الناس العاملين في نفس المصلحة، فقال له: يا فلان، أعني على قضائها وهو يستطيع؛ لأنه يعمل في نفس المكان، فلما قضيت لك المصلحة أخذت هدية وذهبت بها إلى أخيك الذي قضى لك المصلحة، أو قُضيت على يديه المصلحة إذا فعلت هذا فقد أغضبت الله رب العالمين، وأغضبت رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن شفع لأخيه بشفاعة، فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الربا". وذلك لأنك استحللت أو جعلته يستحل ما حرم الله تعالى عليه؛ لأنه لو جلس في بيت أمه أو كان في بيت أبيه لم تكن تصل له هذه الهدية، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملًا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله، هذا لكم وهذا أُهدِيَ لِي. فقال له: "أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى لك أم لا؟" ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: "أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي؟! أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يُهدَى له أم لا! فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلغت"، فقال أبو حميد: ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه.

فقضاء المصلحة يكون بلا مقابل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أكرم الناس عند الله تعالى وأفضل الناس عند الله تعالى الذين يدخلون السرور إلى قلوب إخوانهم"، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن استطاع أن ينفع أخاه بشيء فلينفعه"، فمَن أقال عثرة أخيه في الدنيا أقال الله تعالى عثرته يوم القيامة.

وبعض الناس يقول: وأين هذا الكلام مما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"؟

قلنا: ليس هناك تعارض بين الحديثين؛ لأن الحديث الثاني يعلمنا أن المسلم إذا أراد أن يرد شكر النعمة فإن رد شكر النعمة إلى المنعم سبحانه وتعالى، ومِن شُكر المنعم سبحانه وتعالى أن تشكر مَن جعلهم الله تعالى عند يديك، وقيضهم الله تعالى لخدمتك، هذا إذا كان يؤدي خدمة عامة، أو ليس في نفس المصلحة، وليس في نفس العمل الذي تقضي فيه المصلحة، فإذا ذهبت لأخيك فقلت له: هل تعرف أحدًا في مكان كذا يقضي لي المصلحة الفلانية؟ فقال لك: نعم، ثم سافر وتعب وتحمل المشاق وانتقل من محافظة إلى محافظة حتى قضى لك المصلحة، فهذا الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن صنع إليكم معروفًا فكافئوه". لكنك ذهبت إلى أحد الناس فرفع سماعة التليفون، وقضيت المصلحة بالتليفون وهو جالس في بيته، فيكفي أن تقول له: جزاك الله عني خيرًا، أو وهو جالس في مكتبه أرسل معك أحد العاملين بورقة قضيت بها المصلحة، هذا ما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإن أبلغ الثناء أن تقول لأخيك: جزاك الله خيرًا".

من أبواب الطاعات العظيمة البشريات العظيمة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة، وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا"، فأصدق الناس في الكلام في الحياة العادية هم أصدق الناس في الرؤية.

لكن بعض الناس عندهم هواية وهي تأليف الأحلام، أي أنه لم يرَ شيئًا، لكنه يجلس مع الناس، أو مع رئيسه في العمل، فيقول له: لقد رأيتك بالأمس في كذا وفي كذا... لكي يؤلف قلبه ناحيته، مثل هذا قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن تحلم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل"، "من تحلم بحلم" يعني أعتقد أنه رأى رؤيا، لكنه لم يرها فهو في نار جهنم، فقد اختلق شيئًا لم يحدث مثل أن يقول: إني كثيرًا ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام... وهو لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يصلِّ ولم يكثر من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، أو يقول: إني رأيت نفسي وأنا أصلي عند الكعبة... أو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم... أو يقول لأحد الناس: رأيتك وكأنك ترتع في روضة من رياض الجنة! وهو لم يرَ كل هذا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا الكاذب: "مَن كذب في الرؤيا كلفه الله تعالى يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين"، والشعيرة: ثلاثة سنتيمترات تقريبًا، فيكلفه الله تعالى أن يعقد بين الشعيرتين ولن يستطيع أن يفعل؛ لأنه كذب في الدنيا وافترى على الله تعالى الكذب فعجزه، فعجزه الله تعالى يوم القيامة، هذا داخل في قوله تعالى: (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥].

ومن هذه الأمثلة أيضًا: أن بعض الناس وهو مسافر يجلس في وسيلة المواصلات مثلًا فيستمع إلى اثنين يتحدثان، فيستمع بإنصات، وإذا طلبت إليه أن يعيد الحديث فإنه يعيده إليك أفضل مما استمع، مثل هذا ورد فيه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها، وعذب ولن ينفخ فيها، ومن تحلم كلف يوم القيامة أن يعقد شعيرتين -أو قال: بين شعيرتين-، وعذب ولن يعقد بينهما، ومن استمع إلى حديث قوم يكرهونه صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة". والآنك يعني: الرصاص.

فمَن تجسس على قوم دون أن يدروا، وهم لا يعرفون أن أحدًا يتصنت عليهم أو يتسمع عليهم صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة، وهو الرصاص المذاب، فبدلًا من أن تجلس وتستمع إلى أحاديث الناس وإلى مشاكلهم وخصوصياتهم، اجلس مع ربك، أين مصحفك؟ أين لسانك من ذكر الله؟ أين استغفارك؟ أين حمدك لله؟ إذا جلست في مثل هذه الأماكن ولست مشغولًا بشيء فعليك أن تشغل قلبك بذكر الله كيلا يُصب في أذنيك الآنك يوم القيامة، فإن قلت: لا أستطيع أن أقرأ في المصحف، أو قلت: لا أستطيع أن أقرأ في السيارة وهي تسير، قلت لك: أين أنت من (قل هو الله أحد)؟! فمَن قالها عشر مرات بنى الله تعالى قصرًا في الجنة، فانظر لفضل الله عليك، وتدبَّر جيدًا.

إذن عندما سجل في عقله وفي قلبه ما يقولون فإنه عصى الله تعالى دون أن يدري، والله تعالى يقول: (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) [النور: ١٥].

ومن الذنوب التي ترى أنها صغيرة أنك مشغول بالناس: ما راتب فلان؟ ماذا أكل فلان؟ ماذا يرتدى فلان؟ ماذا فعل فلان؟ هل سافر فلان؟... فأنت مشغول بجميع الناس، أما قلبك فلست مشغولًا بإصلاحه، وأما فؤادك فإنه يرد عليه الكثير دون أن تحجب الكثير على أن يشغل قلبك بذكر الله تعالى، قال لك ربك تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) [الإسراء: ٣٦].

ولا تتبع -أيها الإنسان- ما لا تعلم، بل تأكَّد وتثبَّت، إن الإنسان مسؤول عما استعمَل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإذا استعمَلها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب.

فينبغي لك ألا تسأل إلا عن دينك، وإلا عن معاشك أنت، (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء: ٣٦]. لماذا يا رب؟ (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)، فلا تقل: إن أذني تلتقط الكلام دون أن أدري! ولا تقل: إن المناظر هي التي جاءت أمامي ولم أنظر! قال تعالى: (كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) [الإسراء: ٣٦]. فهذا علم لا ينفع وجهل لا يضر.

ثم علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك ما ليس فيه فائدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه". فحُسنُ الإسلام في أن لا تنشغل إلا بما يعنيك أنت.

والإسلام كله يدور حول أربعة أحاديث، مَن حفظها وعمل بها فقد حافظ على فرائض الإسلام، وحافظ على أركان الإسلام، وهذه الأحاديث هي:

الحديث الأول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه". فهذا الحديث يمثل خمسة وعشرين في المائة من الإسلام.

الحديث الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليق خيرًا أو ليصمت". فهذا الحديث يمثل خمسة وعشرين في المائة من الإسلام.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: "لا تغضب"، فردد مرارًا، قال: "لا تغضب". فهذا الحديث يمثل خمسة وعشرين في المائة من الإسلام.

الحديث الرابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". فهذا الحديث يمثل خمسة وعشرين في المائة من الإسلام.

فإذا وجدت المرء مهمومًا بالكلام عن فلان وعن أحوال الناس فاغسل يدك منه؛ فإنه لا خير فيه، إذا سألت الرجل: ما رأيك في فلان فذكر أفضل ما فيه، فاعلم أن هذا الرجل الذي يتحدث فيه خير، وإذا سألته عن أحد الناس فذكر أسوأ ما فيه فاغسل يدك منه؛ فإنه ليس نظيفًا، كما جاء في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [بالحشر: ١٠]. أي: والذين جاؤوا من المؤمنين من بعد الأنصار والمهاجرين الأولين يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا حسدًا وحقدًا لأحد من أهل الإيمان، ربنا إنك رؤوف بعبادك، رحيم بهم.

وفي الآية دلالة على أنه ينبغي للمسلم أن يذكر سلفه بخير، ويدعو لهم، وأن يحب صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويذكرهم بخير، ويترضى عنهم.

وفي غزوة أحد أُتي بشاب شهيد والشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، وأرواح الشهداء قناديل معلقة في عرش الرحمن، ورغم هذا فقد جيء بالشاب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت أم الشهيد فكشفت عن وجهه، فقالت له: هنيئًا لك يا ولدي، وكشفت عن بطنه فرأت أن ابنها قبل أن يموت قد ربط الحجر على بطنه؛ لأنه كان جوعان، فقد مات شهيدًا وجائعًا، فنظرت إليه وقالت له: هنيئًا لك يا ولدي؛ فإن موعدك الجنة، وإنك الآن لترتع في رياض الجنة.

وهذا كلام صحيح وكلام طيب، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أضاف لنا إضافة مهمة، فقال صلى الله عليه وسلم لها: "وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره"، فهذا شهيد وجوعان، ورغم هذا فإن الذي يمنعه من دخول الجنة أنه كان متكلمًا مجادلًا، وأنه كان مشغولًا بغيره، وكان يتتبع عورات الناس وأحوال الناس، إذا كان كذلك فإن كونه شهيدًا لا يشفع له عند الله تعالى. فهذا عمل يبدو بسيطًا، ولكنه يمنع الشهيد من دخول الجنة.

فالذنوب التي نرى أنها صغيرة هي في الحقيقة عظيمة، والدليل على ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له (مدعم)، أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم عائر، حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا". فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شراك -أو شراكان- من نار".

فـ (مدعم) كان يخدم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه في غزوة خيبر طمع في قطعة قماش تسمى شملة، في حجم المنديل وهو يلبس ملابس الجهاد في سبيل الله تعالى، ويستعد للقتال لكنه في سبيله إلى المعركة أخذ شملة من الغنائم فوضعها في جيبه، أو وضعها في صدره، ودخل مدعم المعركة ومات شهيدًا، فذهب الصحابة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: هنيئًا لك يا رسول الله؛ فإن غلامك مات شهيدًا، وهو الآن يرتع في رياض الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشملة التي أخذها تشتعل عليه نارًا"، فما الذي منع الشهيد من دخول الجنة؟ إنه اختلس شيئًا يبدو بسيطًا، لكنه عند الله عظيم، وهذا من الصغائر الموبقات.

وبعض النساء الفاضلات يصلن إلى حالة من التعب في الحياة، ومن الضجر ومن عدم الصبر؛ فإذا بها تطلب الطلاق، أو تطلب الخلع، وتبرر هذا لنفسها، وتُقنِع نفسها أنه ليس أمامها سبيل إلا الطلاق، وأنها لا تتحمل أكثر من هذا، فتطلب الطلاق، وكان ينبغي أن تصبر، وأن تحتسب حتى تلقى الله طاهرة.

فهل ترضى المرأة المسلمة أن تكون مثل آسية؟ المتوقع من المسلمة أن تصبر، فإذا بها لا تصبر، وتطلب الطلاق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا طلبت المرأة الطلاق فإنها لا تشم رائحة الجنة".

والإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه يقول: (إذا طلبت المرأة الطلاق فهي منافقة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المختلعات والمنتزعات هن المنافقات"، و(المختلعات) التي تطلب الخلع، و(المنتزعات) كثيرة النزاع مع زوجها وكثيرة الشجار والمشاحنات مع زوجها حتى تجبره على طلاقها، وحتى تنكد عليه في عيشته؛ عندئذ فإنه يقول لها: أنت طالق؛ لأجل هذا فإنها تضطر زوجها إلى أن يطلقها دون أن تصبر، ودون أن تحتسب وربما تكون هي المؤذية. والله تعالى يقول عن الصابرين: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠].

قل -أيها النبي- لعبادي المؤمنين بالله ورسوله: اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معصيته. للذين أحسنوا في هذه الدينا بعبادة ربهم وطاعته حسنة في الآخرة، وهي الجنة، وحسنة في الدنيا من صحة ورزق ونصر وغير ذلك. وأرض الله واسعة، فهاجِروا فيها إلى حيث تعبدون ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم. إنما يُعطَى الصابرون ثوابهم في الآخرة بغير حدّ ولا عدّ ولا مقدار، وهذا تعظيم لجزاء الصابرين وثوابهم.

فهذه بعض الذنوب، يعتقد الناس أنها صغيرة لكنها موبقات، وسيدنا أنس رضي الله عنه، قال: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات. قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات، و(أدق في أعينكم) كناية عن احتقارهم لها واستهانتهم بها، و(المهلكات) الذنوب الكبيرة.

فهذه الذبوب من الموبقات؛ لأن مخافة الله تعالى كانت عظيمة في أعيننا وعظيمة في قلوبنا، فلا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، فقد عصيت قيوم السماوات والأرض.

عن أبو شهاب، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن الحارث بن سويد، حدثنا عبد الله بن مسعود، حديثين: أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر عن نفسه، قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه، فقال به هكذا"، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه. وقوله: (أن يقع عليه) المعنى: أنه يخاف ألا ينجو من الهلاك كما لو كان جبل سيسقط عليه، و(كذباب مَرَّ على أنفه)، كناية عن عدم اكتراثه بالذنب.

فالكافر يكفي أنه كافر؛ فالذنوب عنده لا تساوي شيئًا، أما المسلم الذي يخاف الله تعالى ويخاف معصية الله تعالى الذي يعرف مقام الله تعالى، قال تعالى: (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [إبراهيم: ١٤]. أي: ولنجعلن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، ذلك الإهلاك للكفار، وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لمن خاف مقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخشي وعيدي وعذابي.

فعلمنا رسول الله صلى عليه وسلم أن الكافر يفعل المصيبة الكبيرة وهو يجترأ بها على الله وهي أشبه بالذبابة يطيشها بيده، أما المؤمن فإنه يفعل الذنب الصغير، الكافر كان يفعل الكبيرة ويشعر أنه لم يفعل أي شيء، أما المؤمن فإنه يفعل الذنب الصغير؛ لأنه يخاف الله يوشك الذنب أن يقع عليه كما يقع الجبل؛ وفي جزاء ذلك قال تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) [الرحمن: ٤٦]. أي: ولمن اتقى الله من عباده من الإنس والجن، فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه، وترك معاصيه جنتا.

تقول لأحد الناس: ما رأيك في هذه المسألة؟ يقول لك: أنا متردد، فتقول له: عين في الجنة، وعين في الجنة، فيقول لك: وهل هناك جنتان؟ تقول: نعم، (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) [الرحمن: ٤٦]. فاللهم ارزقنا الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل يا أرحمن الراحمين.

هكذا المسلم يحرص كل الحرص على عدم اقتراف كل ما حرم الله من الذنوب الصغيرة والكبيرة، وإن فعل فإنه يبادر إلى التوبة بشروطها المعروفة إلى الله تعالى؛ عسى الله أن يتوب عليه.

فاللهم اهدنا، واهدِ بنا، واجعلنا سببًا لمن اهتدى، اللهم عافنا واعفُ عنا، اللهم أرضنا وارضَ عنا، اللهم بارك لنا في مجالسنا، وبارك لنا في مساجدنا، اللهم أجمع قلوبنا على محبتك، واجمع قلوبنا على مرضاتك، اللهم اجعلنا أشد حبًّا لك، واجعلنا أشد خوفًا منك، وافتح مسامع قلوبنا لذكرك.

يا قاضي الحاجات يا الله، يا مقيل العثرات، يا سامع الدعوات، يا أجود مَن سُئل، يا أرأف مَن أعطى، يا أوسع من قُصد، يا مَن يرجى في الشدائد كلها، يا مَن إليه المشتكى والمفزع.

يا الله، يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم، يا باسط اليدين بالعطايا، يا أرحم الراحمين، يا غياث المستغيثين، مَن ينصرنا إذا لم تنصرنا يا الله، مَن يرحمنا إذا لم ترحمنا، مَن يعفو عنا إذا لم تعفُ عنا، أنت الحليم في قربك، أنت العظيم في حلمك، أنت الحليم في كرمك، أنت الكريم في جودك، يا عزيز يا وهَّاب.

يا الله، يا غافر الذنب، يا قابل التوب، يا شديد العقاب، اجعلنا مرحومين ولا تجعلنا مطرودين، لا تجعلنا من الأشقياء الغافلين.

يا الله، يا أنيس الذاكرين، يا جليس الذاكرين، يا سامعًا للشاكرين، يا سامع كل نجوى، يا كاشف كل بلية، عندما نُضام ونبتلى لا نجد بابًا إلا بابك يا الله، عندما تضيق الدنيا في وجوهنا لا نجد بابًا إلا بابك يا الله، عندما نمرض لا نجد شافيًا إلا أنت يا الله، مَن يسعدنا إذا لم تسعدنا يا الله، مَن ينصر المسلمين إلا أنت يا الله؟ مَن للإسلام غيرك؟ مَن للقدس غيرك؟ يا الله، مَن على أعدائنا غيرك؟ مَن للشيشان غيرك؟ مَن للأفغانستان غيرك؟ مَن للشهداء غيرك؟ مَن لليتامى غيرك؟ مَن للأرامل غيرك؟

يا جواد يا كريم، يا عفو يا رحيم، يا الله، اللهم أسعد أبناءنا ونسائنا، وطهر قلوبنا، وارزقنا وإياكم الإخلاص في الدعاء، وارزقنا وإياكم حسن الرجاء، يا سامع الصوت، يا سابق الفوت، يا كاسي العظام لحمًا بعد الموت، نسألك توبة الذاكرين، نسألك ذكر المحسنين، ونسألك إحسان المقربين، ونسألك قرب العارفين، ونسألك معرفة أهل اليقين، ونسألك يقين أهل الهداية، ونسألك هداية الصلاح، ونسألك صلاح أهل التقوى وأهل المغفرة، وربَّك فكبِّر، يا الله مَن يعلم حالنا؟ من يسمع دعاءنا؟ من يسجل أعمالنا؟ من يقبل توبتنا؟ من يغسل حوبتنا؟ من يفتح لنا أبواب الرحمات؟ من يفتح لنا أبواب التوبات؟ من يتوب على العاصين منا؟ من يشفي مريضنا؟ من يحفظ حاضرنا؟ من يرد غائبنا؟

نسألك صحة في إيمان، وإيمانًا في حسن خلق، ونجاحًا يتبعه فلاح، وفلاحًا يتبعه إحسان وعافية منك وتوفيق يا الله، يا مَن يجيب دعاء المضطر في الظلم زدنا نورًا يا الله، أنزل على كون السعداء نورًا، أنزل علينا نورًا، واجعلنا نورًا، واجعل في بيتنا نورًا، واجعل مسجدنا نورًا، وارزقنا فتحًا وسرورًا وحضورًا وشرحًا للصدور، وتفريجًا للهموم، وتيسيرًا لكل عسير، اقضِ حاجتنا، وأَقِلْ عثرتنا.

مَن كان منا مهمومًا ففرِّج همه، من كان منا مكروبًا ففرِّجْ كربه، يا كاشف الضر والبلوى مع السقم، قد نام وفدك حول البيت وأنت يا حي يا قيوم لم تنم، إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه فمَن يجود على العاصين بالكرم، فمَن يجود علينا بالكرم إلا أنت يا كريم، نحن الضعفاء الذين قويتهم، نحن الصغيرون الذين كبرتهم، نحن الجوعى الذين أطعمتهم، نحن الظمأى الذين أسقيتهم، نحن العاصون الذين هديتهم، نحن البعيدون الذين قربتهم، لا هادي لِمَن أضللت، ولا مضل لمن هديت، يا من يعلم السر وأخفى اجعل سرنا صادقًا، واجعل ظاهرنا صادقًا، تقبل منا واقبلنا يا أرحم الراحمين.

اللهم باهِ بنا ملائكتك وحملة عرشك وسكان سماواتك، وقل لهم: يا ملائكتي يا حملة عرشي يا زوَّار بيتي المعمر، إن عبادي اجتمعوا على محبتي وعلى طاعتي يرجون رحمتي، يرجون حبي، يرجون مرضاتي، يشتاقون إلَيَّ، ويستأنسون بِي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد عفوت عنهم، وفتحت لهم الأبواب، وخففت عنهم الحساب، ومَن يغفر الذنوب إلا الله، اعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اجعل المسجد شاهدًا لنا لا علينا، واجعلنا من عُمَّار المساجد، اكتبنا فيها مع كل راكع وساجد، نسألك رضاك والجنة يا الله، ازداد المسجد نورًا بحضور ملائكتك، وتنادوا على بعضهم: هلموا إلى المسجد، فاجعلنا من السعداء الذين لا يشقى جليسهم، وكيف نشقى وأنت معنا، وأنت غايتنا، وأنت سُئلنا ورجاؤنا، فاختم لنا بالإسلام، وتوفنا وأنت راضٍ عنا، ما لي سواك يا الله، ومَن سواك يرى قلوبنا ويسمعنا كل الخلائق في يدً ذي الصمد، يا صمد يا الله، يا باقي يا الله، أسعدنا بلقائك، توَّفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ولا تخزنا يوم يبعثون، لا تخزِ فينا حبيبك النبي صلى الله عليه وسلم، يوم لا يخزي الله النبي، لا تخزي النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، بيِّضْ وجوهنا يوم العرض عليك، نوِّرنا بالقرآن، وأسعدنا بالقرآن، وألبسنا به الحلل، وأسكننا به الظلل، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، لا يحل علينا سخطك، لا ينزل علينا غضبك، نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك ومن النار، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

اللهم لك الحمد كالذي نقول، ولك الحمد خيرًا مما نقول، (وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء: ١١١].

لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة إليك، ولا تردنا صفر اليدين، وكيف تردها وأنت أكرم الأكرمين ونحن عبيدك، ونحن راجون عفوك ورحمتك، لا تعذب هذه الأقدام الساعية، لا تعذب هذه الأبدان الصابرة، لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا إليك يوم القيامة ناظرة، زِدْ هذه الوجوه نورًا؛ فأنت النور كله، وأنت العفو كله، وأنت العطاء كله، وأنت الفتح كله، وإليك يرجع الأمر كله.

قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

رحمة ربي

رحمة ربي

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونثني عليك يا ربنا الخير كله، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، يا مَن لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، وأمره بين الكاف والنون، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) [مريم: ٩٣-٩٤].

سبحانك لا إله إلا أنت، أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، وأنت الظاهر فلا شيء دونك، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) [الرعد: ١٢-١٣].

نشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، سيرته خير السير، وعطرته خير العطر، سيد الأولين، وإمام الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال الله تعالى: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: ٩٨].

في أيام الرحمات لا بد من الحديث عن بعض جوانب رحمة الله تعالى، فاللهم أدخلنا في رحمتك، اللهم أوسع لنا نورًا، وأوسع لنا رزقًا، وأوسع لنا فتحًا.

قال تعالى: (مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [البقرة: ١٠٥]. أي: ما يحب الكفار من أهل الكتاب والمشركين أن يُنزَّل عليكم أدنى خير من ربكم قرآنًا أو علمًا، أو نصرًا أو بشارة، والله يختص برحمته مَن يشاء مِن عباده بالنبوة والرسالة، والله ذو العطاء الكثير الواسع.

رحمة الله تعالى للكون كله رحمة عامة، ثم رحمة الله تعالى بأمة الإسلام رحمة خاصة، ثم رحمة الله تعالى بالملتزمين والمستقيمين والمؤمنين الصادقين من أمة الإسلام رحمة خاصة، لكن في جميع الأحوال الله تعالى سمى نفسه الرحمن، وسمى نفسه الرحيم، والعباد جميعهم المؤمن والكافر يتقلبون ويعيشون في رحمات الله تعالى، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [النور: ٢١].

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسلكوا طرق الشيطان، ومَن يسلك طرق الشيطان فإنه يأمره بقبيح الأفعال ومنكراتها، ولولا فَضْلُ الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طَهُرَ منهم أحد أبدًا من دنس ذنبه، ولكن الله بفضله يطهر مَن يشاء، والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم.

إذا ما نظرت أمامك أو خلفك أو في أي مكان تشدك رحمة الله بعباده، والإنسان لو يتخيل أنه يستيقظ من النوم فلا يرى نهارًا، ويبقى الليل مستمرًّا، أو يأتي عليه النهار ويترقب أن يأتي الليل ولم يأتِ الليل، فكيف تعيش؟! الله تعالى يدعونا إلى أن نتأمل، فقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ) [القصص: ٧١].

قل أيها الرسول: أخبروني أيها الناس إن جعل الله عليكم الليل دائمًا إلى يوم القيامة، مَن إله غير الله يأتيكم بضياء تستضيئون به؟ أفلا تسمعون سماع فهم وقَبول؟

دائمًا القرآن الكريم عندما تأتي كلمة الليل تأتي معها السمع، إذن الليل مربوط بالسمع؛ لأن الإنسان عندما ينام بالليل فإن جميع الحواس شبه معطلة إلا حاسة واحدة وهي السمع؛ ولذا قال تعالى: (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل: ٧٨].

والله سبحانه وتعالى أخرجكم مِن بطون أمهاتكم بعد مدة الحمل لا تدركون شيئًا مما حولكم، وجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلكم تشكرون لله تعالى على تلك النعم، وتفردونه عز وجل بالعبادة.

فالطفل يولد لا يرى، ويظل مدة إلى أن يميز، فيظل شهرين أو ثلاثة حتى يعرف والده أو والدته، ولكنه كان يسمع وهو لا يزال في بطن أمه.

ثم قال تعالى: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [القصص: ٧٣].

ومن رحمته بكم أيها الناس أن جعل لكم الليل والنهار فخالف بينهما، فجعل هذا الليل ظلامًا؛ لتستقروا فيه وترتاح أبدانكم، وجعل لكم النهار ضياءً؛ لتطلبوا فيه معايشكم، ولتشكروا له على إنعامه عليكم بذلك.

فتقلب الليل والنهار نعمة، واستقامة الكون نعمة، فهذا يسير بنظام، وهذا يسير بنظام، والليل يكون طويلًا ثم يبدأ في القصر، والنهار يطول وبعد مدة يطول الليل، ويقصر النهار حتى تأتي ليلة واحدة في السنة يكون فيها آذان المغرب هو نفسه آذان الفجر، مثلًا: المغرب يؤذن حوالي الساعة الخامسة، فنجد الفجر يؤذن في نفس الميعاد في الصباح، وهذه ليلة واحدة في السنة، فمَن ربط هذا الكون كله؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

والقمر إذا نزل قليلًا سيزيد نوره، وإذا نزل حوالي مليمتر واحد عن مداره الذي هو فيه فإن الأرض تغرق في لحظة واحدة بفعل المد والجذر في البحر! لكن الله وضعه في مداره ووضعه في فلكه.

ولو تحركت الشمس عن مدارها التي هي فيه، ونزلت مليمتر واحد لاحترقت الأرض، ولو ارتفعت مليمتر واحد فقط فإن الأرض كلها تصبح قطعة من الجليد مثل القطب الجنوبي!

إن الله تعالى جل جلاله يقول: (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ) [غافر: ٨١]. أي: ويريكم الله تعالى دلائله الكثيرة الواضحة الدالة على قدرته وتدبيره في خلقه، فأي آية من آياته تنكرونها، ولا تعترفون بها؟

تخيل أنك ذات مرة استيقظت في الصباح الباكر وأنت خارج من هذه بلدك، والنيل يجري بجوارك، فوجدت أن النيل صار جافًّا فحفرت في الأرض لتبحث عن مياه جوفية لكن اختفت المياه الجوفية في لحظة، واختفت مياه البحار التي يمكن تحليتها، واختفت مياه الأنهار، كيف لك أن تعيش؟ !الملك سبحانه يسألكم سؤال لكن لا أحد سيعرف الإجابة عليه إلا إذا قال: لا إله إلا الله، فقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ) [الملك: ٣٠].

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: أخبروني إن صار ماؤكم الذي تشربون منه ذاهبًا في الأرض لا تصلون إليه بوسيلة، فمَن غير الله يجيئكم بماء جارٍ على وجه الأرض ظاهر للعيون؟

لن نفترض أن الماء كله سيذهب، لكن سيذهب الماء العذب ويبقى الماء المالح، كيف تعيش؟ فكان النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم إذا شرب الماء فإنه يقول: "الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا".

وفي آية أخرى قال تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النمل: ٦١].

أعبادة ما تشركون بربكم خير أم الذي جعل لكم الأرض مستقرًا وجعل وسطها أنهارًا، وجعل لها الجبال ثوابت، وجعل بين البحرين العذب والملح حاجزًا حتى لا يُفسد أحدهما الآخر؟ أمعبود مع الله فَعَلَ ذلك حتى تشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قَدْر عظمة الله، فهم يشركون به تقليدًا وظلمًا.

فالله تعالى جعل الأرض قرارًا، جعلها مهدًا، قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الزخرف: ١٠]. أي: الذي جعل لكم الأرض فراشًا وبساطًا، وسهَّل لكم فيها طرقًا لمعاشكم ومتاجركم؛ لكي تهتدوا بتلك السبل إلى مصالحكم الدينية والدنيوية.

فالله تعالى جعل الأرض مثالية في كل شيء، ولا تدوم الحياة إلا على الأرض؛ لأن الجاذبية الأرضية الموجودة في هذه الأرض ليس لها مثيل في أي كوكب أخر، فالإنسان يستطيع أن يتحرك ويمشي ويأكل وينام وهو متزن مع نفسه، لكن لو صعدت إلى القمر تبدأ الجاذبية تختفي، وتلاحظ أن الذين يصعدون إلى القمر لكي يصل إلى الأرض صعب جدًّا كأنه يطير، ولو أراد أن يشرب الماء فلا ينزل الماء إلى فمه، بل يتناثر، ولو أراد أن ينام فينام ورأسه إلى أسفل ورجله إلى أعلى! ولو أراد أن يأكل الطعام لا يأتي إلى فمه؛ لأن الجاذبية في القمر ضعيفة جدًّا لا تصح فيها الحياة، قال الله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الزخرف: ١٠].

وإذا صعدت إلى كوكب المشترى فإن الجاذبية في أضعاف الجاذبية الموجودة في الأرض على عكس القمر، فالإنسان في المشترى لا يستطيع أن يمشي؛ لأن الجاذبية شديدة فينجذب إلى الأرض؛ لأن الأرض هناك عبارة عن مغناطيس، فتستحيل فيه الحركة، فالملك سبحانك اختار هذه الأرض فأبعد عنها كل هذه العوامل، وجعلها مثالية كي نعيش فيها وندفن فيها ونبعث منها، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) [طه: ٥٥].

فإذا أردنا أن ندفن إنسانًا على القمر استحال ذلك؛ لأن القمر لا يقبل أي شيء يدخل فيه، (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) [طه: ٥٥].

ولذلك قال تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: ٥٠]. أي: قال موسى لفرعون: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَه اللائق به على حسن صنعه، ثم هدى كل مخلوق إلى الانتفاع بما خلقه الله له.

والفلاح عندما يلقي بحبة قمح أو ذرة أو أرز فكل حبة ستخرج حبة واحدة فقط، بمعنى: إذا زرعت كيلو أرز ستجني منها كيلو أرز واحدًا فقط، فهل تدوم الحياة؟ لن تدوم؛ لذلك فالله يضاعف لك، فتزرع حبة الأرز الواحدة فتخرج لك مائة حبة، فمَن يفعل هذا غير الله؟! قال تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٦١].

ومِن أعظم ما ينتفع به المؤمنون الإنفاقُ في سبيل الله. ومثل المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة زُرِعتْ في أرض طيبة، فإذا بها قد أخرجت ساقًا تشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة، في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف الأجر لمن يشاء، بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام، وفضل الله واسع، وهو سبحانه عليم بمن يستحقه، مطلع على نيات عباده.

فرحمة الله عظيمة جدًّا، فاللهم املأ قلوبنا خيرًا، وبيوتنا خيرًا، وأعمالنا خيرًا، وهذا ما ورد ذكره في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) [الأنعام: ٩٥].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن قال لك النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: "مَن تصبح بسبع تمرات أو عجوات لن يضره سحر أو أذىً في يومه هذا".

فالناس الذين يحسدون تخرج من أعينهم أشعة سامة، تُسمى بأشعة الأفعى، وهناك من الأفاعي ما تقتل بنظرها، فالحاسد يستخدم أشعة في عينيه كنفس الأشعة الموجودة في الأفعى؛ ولذا قال النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: "لا يجتمع الإيمان والحسد في قلب امرئ مسلم".

فأتوا بهذه الأشعة وحللوها وبدأوا يفعلون أشعة مماثلة ويعرضونها للناس، وسنأتي بأي شخص أكل في الصباح سبع تمرات، والثاني لم يأكل سبع تمرات أو سبع عجوات، ونعرضه لهذه الأشعة، فتبين لهم أن أشعة الحاسد لا تخترق أبدًا! فمَن علمك بهذا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

فإذا أكل الإنسان كل يوم سبع تمرات أو عجوات ويتصبح بها، أو قبل النوم، أو قبل السحور في رمضان فإنه لا يضره سحر ولا مس ولا أذى ولا حسد، وتبين في أحدث بحث نشر في الشبكة الدولية أن التمر والعجوة تخرج منها أشعة ضد أشعة الحسد، وهذا ما علمه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: ١١٣].

ولولا أن الله تعالى قد مَنَّ عليك -أيها الرسول- ورحمك بنعمة النبوة، فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك، لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يُزِلُّوكَ عن طريق الحق، وما يُزِلُّونَ بذلك إلا أنفسهم، وما يقدرون على إيذائك لعصمة الله لك، وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة له، وهداك إلى علم ما لم تكن تعلمه مِن قبل، وكان ما خصَّك الله به من فضلٍ أمرًا عظيمًا.

ثم تشدك بعد ذلك عظمة رحمة الله تعالى، ولذلك فإن الله تعالى قال: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [فاطر: ٢]. أي: ما يفتح الله للناس من رزق ومطر وصحة وعلم وغير ذلك من النعم، فلا أحد يقدر أن يمسك هذه الرحمة، وما يمسك منها فلا أحد يستطيع أن يرسلها بعده سبحانه وتعالى، وهو العزيز القاهر لكل شيء، الحكيم الذي يرسل الرحمة ويمسكها وَفْق حكمته.

الرحمة التي بيَّناها قبل قليل اسمها الرحمة العامة التي جعلها الله تعالى في الكون كله، يستمتع بها المسلم ويستمتع بها غير المسلم؛ لأنها جانب من جوانب عظمة الله في الكون، لكن المسلم له رحمات خاصة جدًّا من الله، رحمات معناها: أن الله تعالى يسعى إليك فإذا ما سعيت أنت إليه شبرًا فإنه يسعى إليك ذراعًا، ومَن أتاني يمشي أتاه هرولًا، فأنت إذا جئت إلى صلاة الجمعة مبكرًا، وجلست متوضئًا، واغتسلت غسل الجمعة، وانتظرت الصلاة، وبكرت إلى الصلاة، واستمعت إلى الإمام غفر الله لك ما بين الجمعتين، ولذلك كما قال لك الملك: "مَن تقرب إلَيَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومَن تقرب إلَيَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومَن أتاني يمشي أتيته هرولة".

لأجل هذا فإن الله تعالى قال عن النفس المؤمنة: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة: ١٧]. أي: فلا تعلم نفس ما ادَّخر الله لهؤلاء المؤمنين مما تَقَرُّ به العين، وينشرح له الصدر؛ جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

ولو تعلم ما يعطيه الله لك من جزاء على كل يوم تصومه خاصة في الحر الشديد فإن الإنسان يتمنى أن يكون العام كله رمضان؛ ولذا فإن الله تعالى قال: (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) [النجم: ٤١]، ثم يُجزى الإنسان على سعيه الجزاء المستكمل لجميع عمله، فالله يعطيك بزيادة لا منتهى لها، ولا يعلم فضل الله إلا الله، كما قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) [النور: ٣٦].

هذا النور المضيء في مساجد أَمَرَ الله أن يُرْفع شأنها وبناؤها، ويُذْكر فيها اسمه بتلاوة كتابه والتسبيح والتهليل، وغير ذلك من أنواع الذكر، يُصلِّي فيها لله في الصباح والمساء.

كذلك جاء في الآية التي لحقتها قوله تعالى: (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) [النور: ٣٧].

رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذِكْرِ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلى أي مصير تكون؟

فهؤلاء رجال حقًّا، الرجل منهم يساوي ألف رجل، أحدهم قتله كافر في معركة اليرموك، وبعد أن قتله الكافر قال الكافر: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فتعجب الناس لم أسلم بسرعة وأنت تحارب المسلمين والمعركة دائرة؟ فقال: عندما قتلته رأيت نورًا يخرج من رأسه يغطي ما بين الأرض والسماء! فتزلزل الكافر، وفي لحظة جاءته رحمة الله تعالى وغمرته عناية الله، وشاء الله له أن يدخل في الإسلام.

من هنا فإن هذه الأمة لا يعطيها الله رحمة واحدة، إن ربنا هو الملك العظيم يجود عليك برحمتين، ثم يضاعف لك الرحمات، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الحديد: ٢٨].

يا أيها الذين آمنوا، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه وآمنوا برسوله، يؤتكم ضعفين من رحمته، ويجعل لكم نورًا تهتدون به، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور لعباده، رحيم بهم.

اللهم اجعل لنا نورًا، واجعل صيامنا نورًا، واجعل قيامنا نورًا، واجعل عملنا نورًا، واحشرنا في نور جلالك يا الله.

وفي أيام الرحمات تضاعف فيها الحسنات مضاعفة لا يعلم قدرها إلا الله، فمَن مات صائمًا خُتم له بالجنة، ومَن مات مزكيًا خُتم له بالجنة، ومَن مات ذاكرًا خُتم له بالجنة، ومَن مات على لا إله إلا الله محمد رسول الله خُتم له بالجنة.

ومن بركة الصيام وبركة القيام وبركة صلاة الجماعة أنه مَن أظمأ لله نفسه في يومًا حارًّا كان حقًّا على الله تعالى أن يسقيه يوم القيامة، هذا قوله تعالى: (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) [الإنسان: ٢١].

يعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ، ويُحَلَّون من الحليِّ بأساور من الفضة، وسقاهم ربهم فوق ذلك النعيم شرابًا لا رجس فيه ولا دنس. فالذي سقاهم هو ربهم، فالمسلم ينتظر أن يشرب من يد قيوم السماوات والأرض.

ثم قال تعالى: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) [الإنسان: ٢٢]. أي: ويقال لهم: إن هذا أُعِدَّ لكم مقابل أعمالكم الصالحة، وكان عملكم في الدنيا عند الله مرضيًا مقبولًا.

ومِن جزائهم قوله تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) [الرعد: ٢٣-٢٤].

أي: تلك العاقبة هي جنات عدن يقيمون فيها لا يزولون عنها، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والذريات من الذكور والإنات، وتدخل الملائكة عليهم من كل باب؛ لتهنئتهم بدخول الجنة ، تقول الملائكة لهم: سَلِمْتم من كل سوء بسبب صبركم على طاعة الله، فنِعْمَ عاقبة الدار الجنة.

ولذا قال لك النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: "مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه"، ثم قال لك النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: "مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه".

ومن رحمة الله تعالى بك وأنت صائم إذا دعوته فإنه لا يردك، بل إنه يستمع إليك؛ فإن للصائم دعوة لا ترد، فإذا دعوت بما شئت فإن قيوم السماوات والأرض يستمع لك.

ومِن رحمة الله تعالى بك ومِن تأييد الله تعالى لك ولأمة الإسلام أن الله تعالى جعل لك صوتًا معروفًا في الملأ الأعلى، ويعرف صوتك في الملأ الأعلى، ويقال: هذا صوت فلان ابن فلان؛ لأن فلانًا كان يذكر الله كثيرًا، فإذا قلت: لا إله إلا الله، أو: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر... إلخ، فإنها تصعد إلى الله، ويسمعها مَن في السماء.

والمسلم يريد أن يتصدق كل يوم بعشرة آلاف جنيه، لتصبح في الشهر ثلاثمائة ألف، وإذا حسبناها في السنة فستكون ملايين الجنيهات، لكن أنت ليس معك هذه الآلاف، فهل ممكن لك أن تحصلها؟!

أخرج مسلم عن عقبة بن عامر، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة، فقال: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان، أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم، ولا قطع رحم؟" فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومِن أعدادهن من الإبل".

فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة وهم في الصُّفة، فنادى على الصحابة فقال: أفلا يغدو (يتحرك في الصباح في الضحى) أحدكم إلى بطحان (مكان في المدينة عند قباء) أو إلى العقيق فيتصدق بناقة أو بناقتين كوماوين أو ثلاثة (ناقتين حمراءتين أو ثلاثة)، فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن منا يستطيع؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومِن أعدادهن من الإبل".

فالذي يحفظ آية واحدة فقط في اليوم والذي يحفظ آيتين تصدق بناقتين، فهل تريد أن تزيد؟ اقرأ المزيد.

فلماذا منعت أولادك عن دار القرآن الكريم، وقلت: أولادي عندهم دروس وليس عندهم وقت؟ والفيزياء والكيمياء واللغة العربية واللغة الإنجليزية أهم عندي من القرآن، لماذا ينخفض أعداد الطلاب الذين يحفظون القرآن الكريم؟!

فاللهم نورنا بالقرآن، وثبتنا بالقرآن، وعلمنا علمًا ينفعنا، وانفعنا اللهم بما علمتنا.

واعلم أن الإنسان عندما يكون من أهل القرآن فإن الله تعالى يفتح له أبوابًا لا أبواب لها، فلا تعتقد أن ابنك سيرسب إذا حفظ القرآن وترك باقي المواد، إذا حفظ ابنك القرآن سيكون من المتفوقين؛ لأنه كلام الله، ويرفع الله به أقوامًا ويضع به آخرين، وأهم ما في الحياة وأخطر ما في الحياة هو كلام الله تعالى، قال تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان: ٣٠].

وقال الرسول شاكيًا ما صنع قومه: يا ربِّ إن قومي تركوا هذا القرآن وهجروه، متمادين في إعراضهم عنه وتَرْكِ تدبُّره والعمل به وتبليغه. وفي الآية تخويف عظيم لمن هجر القرآن فلم يعمل به.

فعندما هجروا كتاب الله الذي هو كلام الله فإنهم هجروا كل شيء بعد ذلك، ولم يتذوقوا حلاوة الإيمان.

فالمطلوب منك أخي المسلم الآن تجديد النية مع الله، فكل شيء يبلى ويتغير، والإيمان يبلى ويتغير ويخلق كما يخلق ثوب أحدكم، كما قال النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: "جددوا إيمانكم"، قالوا: وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله؟ فقال: "أكثروا من قول: لا إله إلا الله".

وقال تعالى عن القرآن الكريم: (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) [الفرقان: ٦].

قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار: إن الذي أنزل القرآن هو الله الذي أحاط علمه بما في السماوات والأرض، إنه كان غفورًا لمن تاب من الذنوب والمعاصي، رحيمًا بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

فلا يعلم سرك إلا الله، والله تعالى يعلم منك أكثر مما تعلمه عن نفسك، قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق: ١٦]. أي: ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تُحَدِّث به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (وهو عِرْق في العنق متصل بالقلب).

فيا غياث المستغيثين، وآمان الخائفين، وجليس الذاكرين، ومجيب دعوة المضطرين، اللهم استر أمة حبيبك، اللهم ارحم أمة حبيبك، اللهم اعفُ عن أمة حبيبك، اللهم انصر أمة حبيبك.

ثم قال تعالى رحمة الله تعالى لذي القرنين: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) [الكهف: ٩٨].

قال ذو القرنين: هذا الذي بنيته حاجزًا عن فساد يأجوج ومأجوج رحمة من ربي بالناس، فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج جعله دكاء منهدمًا مستويًا بالأرض، وكان وعد ربي حقًّا.

فاحذر أن يأتي على قلبك خاطر معصية لله؛ لأن الله تعالى قال: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) [الإسراء: ٣٦]. أي: ولا تتبع أيها الإنسان ما لا تعلم، بل تأكَّد وتثبَّت. إن الإنسان مسؤول عما استعمَل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإذا استعمَلها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب.

اللهم يا كاشف الهم، يا فارج الغم، يا مجيب دعوة المضطرين، نسألك بعزك وذلنا، نسألك بغناك وفقرنا، أن تعفو عنا، اللهم أدخلنا في أبواب رحمتك، واستعملنا في طاعتك، نعوذ بك من السلب بعد العطاء، ونعوذ بك من الذنب بعد التوبة، ونعوذ بك من الغفلة بعد الهداية، أنا الصغير الذي كبرته فلك الحمد يا الله، أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد يا الله، أنا الغافل الذي ذكرته فلك الحمد يا الله، أنا القاسي الذي لينته فلك الحمد يا الله، أنا الطريد الذي آويته وهديته للإسلام يا الله.

اللهم لك الحمد على جميع النعم الظاهرة والباطنة، لك الحمد على الصيام ولك الحمد على القيام، اللهم إنك أعنتنا وصمنا، وأعنتنا فقمنا، فتقبل صيامنا وقيامنا، واجبر كسر قلوبنا، اللهم إن ذنوبنا كثيرة، اللهم إن ذنوبنا عظيمة، لكن عفوك أعظم، ولكن سترك أعظم، اللهم استر علينا في الآخرة، واستر علينا في قبورنا، وتوفنا وأنت راضٍ عنا، اللهم خفف عنا الحساب، اللهم هَوِّن علينا الصعاب، اللهم نجنا مما نخاف في الدنيا والآخرة.

اللهم بارك في بلادنا المؤمنة، واجعل رزقها صالحًا واسعًا، واجعل شبابنا صالحين، وفتياتنا صالحات، اللهم علمهم القرآن والإيمان، اللهم ثبتنا وإياكم بالإسلام، اللهم ثبتنا وإياكم بالقرآن، وارزقنا حب القرآن، ونور القرآن، وهداية القرآن، والعمل بالقرآن، وشفع فينا القرآن والصيام.

أسألك يا ربنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيمًا، اللهم لا تعذب هذه الأبدان الصائمة، اللهم لا تعذب هذه البطون الضامرة، اللهم لا تعذب هذه الشفاه الذابلة، اللهم لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، اللهم لا تعذب هذه الأعين الباكية، اللهم لا تعذب هذه الجباه الساجدة، اللهم لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا يوم القيامة إليك ناظرة.

اللهم ارزقنا رزقًا حلالًا، اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، واكفنا بفضلك عن مَن سواك، نسألك يا ربنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيما، (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء) [إبراهيم: ٤٠].

اللهم إنا جئنا في طاعتك، وجلسنا في محبتك، واجتمعنا على ذِكرك، فلا تخرجنا من هذا المكان إلا وقد غسلت أوزارنا، ولا تخرجنا من هذا المكان إلا وقد عفوت عنا ورحمتنا وهديتنا وسامحتنا، يا رب عفوك، يا رب رحمتك، يا رب رضاك، لا تدع لنا في هذا اليوم العظيم ذنبًا إلا غفرته، ولا عسيرًا إلا يسرته.

يا مَن يجيب دعاء المضطر في الظلم، يا كاشف الضر والبلوى مع السقم، قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا، وأنت يا حي يا قيوم لم تنم، إن كان جودك لم يرجوه ذو سفه، فمَن يجود على العاصين بالكرم، أدعوك ربي كما أمرت تضرعًا، فإذا رددت يدي فمَن ذا يرحم، يا مَن هونت علينا الصعاب افتح لنا كامل الأبواب، وهيئ لنا كل الأسباب، وارزقنا يا ربنا بغير حساب.

اللهم هذا يوم عظيم، ملائكتك معنا وأنت ناظر إلينا، اللهم أشهد علينا ملائكتك وحملة عرشك وزوَّار بيتك المعمور، وقل لهم: يا ملائكتي، إن عبادي في هذا الجمع اجتمعوا على طاعتي وحبي وذكري ومحبتي ومناجاتي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم، وأشهدكم يا ملائكتي إني قد عفوت عنهم، وأشهدكم يا ملائكتي إني قد قبلت أعمالهم، وأجبت دعاءهم، وثبت قلبهم، وهديتهم للحق.

اللهم املأنا نورًا، وقبورنا نورًا، واحشرنا يوم القيامة في نور جلالك، يا ذا العفو العظيم يا ذا الستر الكريم، إنا عبيدك وأنت الرب، وقفنا ببابك وأنت الكريم الملك، والملوك عندما تعفوا عن العبيد فإنها تعتق رقابها، والملوك عندما تعفوا عن العبيد فإنها تسامحها، والملوك عندما تعفوا عن العبيد فإنها تكرمها، فأعتق رقابنا من النار، واجعل هذا اليوم شاهدًا لنا يوم القيامة، اللهم جُدْ علينا اللهم، واقبل معذرتنا.

ربِّ اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم؛ فإنك أنت الأعز العزيز الأكرم. اللهم إنا ضيوف الكريم فتفضل علينا بعفوك يا أكرم الأكرمين، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

وصلِّ اللهم وسلِّمْ وباركْ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.